

دراسات أدبية في عصر
بني أمية
تأليف
أ.د. على الخطيب
دار المعارف

دراسات أدبية
فى عصر بنى أمية

تأليف

أ. د. على الخطيب

الأستاذ بجامعة الأزهر





سلسلة كتب ثقافية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخطيب، على.
دراسات أدبية فى عصر بنى أمية.
تأليف : على الخطيب..
ط ٠١ - القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٤.
١٦٠ ص ؛ ٢٥ سم.
تدمك ٩ - ٨٠٠٨ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ - الأدب العربى - تاريخ - العصر الأموى.
٢ - الأدب العربى - تاريخ ونقد.
(أ) العنوان

ديوى ٨١٠,٩٣

رقم الإيداع ١٩٨٧٠ / ٢٠١٤ ٢٢/ ٢٠١٤ / ١

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

أهدى هذا النتاج العلمى إلى:

أحفادى..

«عمر نوبى، ورميثة، وريتال، وريماس».

حبا وأملا..

مُقَدِّمَة

إن العصـر الأموى هـو ذلك العصر المعروف باسـم «عصر الدولـة الأموية» أو «الأدب الأموى» وكان ذلك فى الشـام. والمقصود بـ «الشـام» يوم ذاك «سوريا، الأردن، فلسطين، ولبنان»، وكان ممتدًا من سـنة إحدى وأربعين من الهجرة إلى سـنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة النبوية الكريمة والذى يوافق إحدى وسـتين وستمائة إلى ستة وخمسين وسبعمائة للميلاد، وبذلك يبلغ من العمر نحوًا من تسعين عامًا. والخلفاء الذين حكموا فى هذه الدولة فرعان، هما: «الفرع السفيانى، والفرع المروانى».

فبعد معركة «صفّين» التى كانت بين سيدنا «على بن أبى طالب» رضي الله عنه وسيدنا «معاوية ابن أبى سـفيان» رضي الله عنه نادى «معاوية بن أبى سـفيان» والى الشام بنفسه خليفة على الشام ودام حكمه نحوًا من عشـرين عامًا، فقد حكم الشـام من سنة إحدى وأربعين للهجرة إلى سـنة سـتين للهجرة والتى توافق سنة إحدى وستين وسـتمائة للميلاد، وثمانين وستمائة للميلاد أيضًا، وقد ثبت الملك يوم ذاك لبنى أمية، وجعل الخلافة وراثية فى أهله وكانت المشـكلة الأسـاس التى واجهت سـيدنا «معاوية» رضي الله عنه هى أن أقطار الخلافة الباقية وهى «الحجـاز، والعـراق، ومصر» وما وراءها كلهـا لم تكن تابعة له ثم كان له فيه منافسـون أقوياء، بيد أن سـيدنا «معاوية» اسـتطاع أن يستولى على «مصر» فى يسر وسهولة تأمين، كما اسـتطاع أن يسـتولى على بعض أجزاء العراق، وأن يقوم ببعض الفتوحات فى المشرق والمغرب.

ولقد كان من أقوى منافسـية سـيدنا «عبدالله بن الزبير» رضي الله عنه، وكان يبسـط نفوذه على الحجاز كله، وعلى جانب من العراق. وخلف «معاوية بن أبى سفيان» رضي الله عنه ابنه «يزيد بن معاوية»، بيد أنه لم يكن كأبيه فى الدهاء فكانت فى أيامه مأسـاة «كربلاء»، وكانت هذه الوقعة فى العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، واستشهد فيها «الحسين بن على» رضي الله عنه ثم كانت فى أيامه وقعة «الحَرَّة» وغزو المدينة، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة، والتى توافق شهر أغسطس سنة اثنتين وثمانين وستمائة للميلاد فأصبح أعداء الأمويين كُثْرًا فى العراق وفى الحجاز، وكان سيدنا «عبدالله بن الزبير» رضي الله عنه قد استبد بحكم الحجاز، ثم جاء بعد يزيد بن معاوية ابنه «معاوية» وكان شابا ضعيفًا عليلا

فتوفى وشـيكا وبذلك نرى النزاع يعود علـى الخلافة من جديد، ولكن الخلاف هذه المرة كان بين عدد أكبر من الطامعين فى الخلافة، ثم بين نفر من رؤوس بنى أمية، وقد تغلب «مروان بن الحكم» شيخ بنى أمية يوم ذاك على الطامعين وذلك بأمرين هما:

الدهاء، والوعود، ولكنه اضطر أن يقاتل «عبدالله بن الزبير» فالتقى جيش «مروان» وكان معظمه من اليمانية ومن أهل الشام جيش «عبد الله بن الزبير» وكان معظمه من أهل الحجاز من القيسيَّة، وذلك فى وقعة «مرج راهط» على مقربة من «دمشق» فكانت الغلبة لـ «مروان» فعادت الخلافة إلى الاستقرار لبنى أمية، ولكن فى فرع جديد عرف فى التاريخ باسم الفرع المروانى، وذلك نسبة إلى «مروان بن الحكم» ومكث «مروان بن الحكم» فى الخلافة عشرة أشـهر، ثم خلفه بعد ذلك ابنه «عبد الملك بن مروان» فبقى فى الخلافة إحدى وعشـرين سـنة وذلك من سـنة خمس وستين من الهجرة إلى سنة ست وثمانين للهجرة والتى توافق ٦٨٥ – ٧٠٥ للميلاد فاستطاع قائده «الحجاج بن يوسف الثقفى» أن يتغلب على «عبدالله بـن الزبيـر»، وذلك بقتل عبدالله بن الزبير، ثم يأخذ البيعة «لعبد الملك» من أهل الحجاز كلهم، كما اسـتطاع «الحجاج» أن يبسـط نفوذ الأمويين على العـراق ويثبت فيه ملكهم، ثم إن «الحجاج» بعث بالجيوش إلى المشـرق ووسـع الفتوح فى «خراسان، وبلاد الترك، وفى السند – فى الجانب الشمالى من شبه جزيرة الهند» وكذلك اتسعت فتوح العرب فى المغرب (ليبيا وتونس، وما وراءهما)، ولكن لم تثبت إلا بعد أمد طويل.

وقام «عبد الملك» بِصَكِّ عملة خاصة بهم، بعد أن كانوا يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية.

كمـا قـام بنقل الدواوين (كتابة سـجلات الدولة) إلى اللغة العربيـة بعد أن ظلت إلى أيامـه تكتب فى العراق «بالفهلوية (الفارسـية القديمة) وفى الشـام «بالرومية» وفى مصر «بالقبطية»، وهكذا صارت اللغة العربية لغة دولة وإمبراطورية.

وبعد عصر «عبد الملك» جاء عصر ابنه «الوليد» فحكم عشر سنوات أتم فى خلالها فتح «المغرب» ثم فتح «الأندلس»، وفى أيامه اتسع العُمران وعمّت الحضارة.

وكان بنو أمية قد خطُّوا لأنفسـهم سياسـة قومية عصبية عربية فأساء ذلك إلى الموالى (وهم المسلمون من غير العرب من الفرس والترك الذين كانوا كثرة السكان فى الإمبراطورية الأمويـة)، وكذلـك كانوا قد أسـاءوا إلى آل على، وقاموا بدعوة سـرية للثورة على الحكم

الأموى ودعوا إلى الرضا من آل «محمد» واتخذوا السواد (العلم الأسود والثياب السُّود) شعارا لهم مخالفة لبنى أمية الذين اتخذوا «البياض» شعارا لهم، وما إن جاء إلى العرش الأموى خلفاء ضعاف سياسيا كـ «عمر بن عبد العزيز» (٩٩هـ - ٧١٧م) ويزيد بن عبد الملك (١٠١هـ - ٧٢٠م) حتى سود الدعاة (نشروا العلم الأسود: أعلنوا الدعوة) وأخذوا يقاتلون الأمويين، واستطاع هؤلاء أن يزعزعوا البيت المالك فسقطت الخلافة الأموية فى المشرق سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م.

بقلم الأستاذ الدكتور/ على الخطيب
الأستاذ فى جامعة الأزهر الشريف

الثقافات الأجنبية

كان عصر بنى أمية ميدانا زمنيا لامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية، ومعروف أن الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلى كانت على صلة بالحضارات الأخرى كالفارسية والإغريقية والرومانية لكن هذه الحضارات فى العصر الأموى اندمجت اندماجا تاما فى الحضارات الأجنبية نتيجة للرقيق الأجنبى الذى انتشر فى هذا العصر وشاع شيوعا كثيرا حتى ليذكر التاريخ أن من قتلوا فى معركة (الحرّة) بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف، بينما قتل من العرب ثلاثة آلاف فقط.

يقول ابن خلدون فى مقدمته: «لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليه، فأفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه»[1].

وكان لهؤلاء الرقيق دورهم الفاعل المؤثر فى مسيرة الأدب العربى فى ذلك العصر، فقد نهض هؤلاء ولا سيما الجوارى بفن الغناء الذى فتحت له النوادى فى مكة والمدينة، وبرع فيه المغنون والمغنيات من أمثال ابن سريج، وابن محرز، وطويس، ونشيط، ومعبر، وحبابة، وسلامة القس وغيرهم[2]. ومعروف أن عرب العراق خضعوا منذ القدم لتأثيرات فارسية ورومانية إغريقية، فإذا ضممنا إلى هذا الإقليم إقليم فارس وما كان له من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الفارين إليها من اضطهاد دولتهم، ظهر بوضوح مدى التأثير الأجنبى فى حضارة هذا الإقليم وثقافته وآدابه.

أما إذا ذهبنا إلى بلاد الشام فسنجد التأثير الرومانى الإغريقى هناك عنيفا، وكان من أثار هذا التنظيم الحربى الذى كان شائعا فى رسائل العصر الأموى كما فى رسالة عبد الحميد الكاتب.

رُقىّ الحياة العقلية

شهد عصر بنى أمية نهضة كبيرة فى الحياة العقلية تمثلت فى تدوين العلوم ومدارستها والتأليف فيها، فقد وضعت فى هذا العصر البذور الأولى للعلوم الشرعية والعربية وغيرها من فروع العلم.

(١) المقدمة ص١٤٤.

(٢) للوقوف على أسماء هؤلاء وأخبارهم راجع الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.

ومن العلوم التى أظهرت أو دونت فى هذا العصر:

علم التفسير والقراءات وعلوم القرآن:

فقد ظهرت فى العصر الأموى البدايات الأولى لعلم التفسير على يد عبد الله بن عباس وعروة بن الزبير - رضى الله عنهما - كما وضعت مصنفات فى غريب القرآن وعلومه وفى أسباب النزول.

كما ظهر أصحاب القراءات القرآنية السبعة، عبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وعاصم بن بهدلة، وعمرو بن العلاء، وحمزة بن حبيب، ونافع بن نعيم، وعلى بن حمزة الكسائى.

الحديث وعلومه:

لم يدون الحديث على عهد النبى ﷺ والراشدين من خلفائه لظاهر نهيه ﷺ عن تدوينه، جاء فى صحيح مسلم «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى ولا حرج»، ولعل السبب فى ذلك خوف اختلاط كلام الله - عز وجل - بسواه، لكن باستشهاد حفاظ الحديث من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم فى الفتوحات الإسلامية، واجتراء بعض الناس على نسبة أقوال إلى الرسول ﷺ دون أن يقلها، لجأ خلفاء بنى أمية - وأولهم عمر بن عبد العزيز - لتدوين الحديث بغية حفظه من الضياع.

الفقه وأصول المناظرات الفقهية:

ظهرت فى هذا العصر المدارس الفقهية التى تعنى بالأحكام وتدلى بآرائها الفقهية، وتضع لها أسسا وقواعد وأصولا، كما ظهرت المناظرات والمجادلات الفقهية بين العلماء.

ذكر ابن سعد فى طبقاته أن إياس بن معاوية حين قدم «واسطا» جعلوا يقولون: قدم البصرى، فأتاه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها له فجلس بين يديه فقال: أتأذن لى أن أسألك؟ قال: ما ارتبت بك حتى أستأذنتنى إن كانت لاَ تعنّت القائل ولا تؤذى الجليس فقل، فسأله عن بضع وسبعين مسألة، فما اختلفا يومئذ إلا فى ثلاث مسائل أو أربع رده فيها إياس إلى قوله، ثم قال: يا ابن شبرمة هل قرأت القرآن؟ قال: نعم من أوله إلى آخره، قال: فهل قرأت «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى»؟ قال: نعم وما قبلها وما بعدها، قال: فهل وجدته بقى لآل شبرمة شىء ينظرون فيه؟ فقال: لا، فقال له إياس:

إن للنســك فروعا، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد، وقال: إنى لا أَعْلَمُكَ تعلقت من النســك بشــىء أحسن من شــىء فى يدك: النظر فى الرأى»[1]. وفى هذا النحو حفل ذلك العصر بمثل هذه المناظرات الفقهية.

العقيدة وعلم الكلام:

ظهرت فى هذا العصر أبحاث فى العقيدة، وظهرت معها مقدمات علم الكلام وكان من أهم المسائل التى عرضت للبحث مسألة الإيمان وهل من الضرورى أن يرفق بالعمل أو ليس ذلك من الضرورى، فالمســلم يعد مؤمنا وإن جار عــن طريق القصد، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مســلم ومسلم، فالجميع من أهل القبلة وإن عصوا، أو لم يؤدوا الفريضة، وذهبت تدعــو هذه الدعوة فئة ســميت بالمرجئة، وكانت من أهم ما دعــت إليه ترك الحكم على مصير الناس إلى ربهم، فعلى وعثمان ومعاوية مؤمنون ولا يمكن الحكم على أحدهم بخطأ، وكذلك كل مســلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله، إذ يكفى أن يكون مســلما، أما عمله فمرجعه إلى ربه حتى ولو لم يصم ولم يُصَلِّ فهو مسلم ولا يصح أن يطرد من حظيرة الإسلام[2].

الشعر والنحو وعلوم العربية:

كان الشــعر العربى القديــم محفوظا فى ذواكر الرجال حتى هــذا العصر الذى قام فيه الرواة بجمع الشعر وتدوينه، ومن هؤلاء حماد الراوية، وخلف الراوى، وجفاد بن واصل، وعمرو بن العلاء، وقد ذكر الجاحظ عن هذا الأخير أن كتب الشعر عنده ملأت بيتًا له إلى قريب من الســقف ثم إنه ضن بها فأحرقها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه[3].

كما ظهرت فى هذا العصر البذور الأولى للنحو وعلوم العربية على نحو مَا نجده من أبى الأسود الدؤلى الذى يعد فى نظر كثير من الباحثين الواضع الأول لعلم النحو.

---

(١) طبقات ابن سعد ج٧ ص٥.

(٢) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص٧٥.

(٣) راجع البيان والتبيين ٣٢١/١.

أثر الأحزاب السياسية فى ازدهار الأدب الأموى

مما لا شـك فيه أن الأحزاب السياسية كثرت وازدهرت وترعرعت فى العصر الأموى، مما نجم عنه وجود موجة من التنافس الشـديد والصراعات الدامية، مما كان له أكبر الأثر فـى نفوس الشـعراء على وجه الخصوص، وفى دولـة الأدب على وجه العموم، إذ إن كل حزب يريد أن يرفع من شـأن قادته، ويحط من الآخرين، وهكذا شـعر الأدباء بانتمائهم لأحزابهم، وأن عليهم واجبًا لأحزابهم يتلخص فى قيامهم باستخراج أحسن ما عندهم من نثر وشـعر، ليكون رمزًا لانتصارهم لأحزابهم التى ينتمون إليها، ويكون علامة مضيئة لهم فى طريق السياسة التى ينتهجونها، مما أذكى شعلة الأدب، وأجج نار العداوة بين شعراء الأحزاب، فأوقدوا جذوة الشعر فى نفوسهم والحماس فى قلوبهم، فجادت قرائحهم بأجود ما عندهم، وأحسن ما يدافعون به عن قبائلهم وأحزابهم.

وكلما تقدم الزمن تشعبت الأحداث وتشابكت الأمور، وكثرت الأحزاب، كل يقف على طرف نقيض من الآخر، ولا شـك أن الشـعر قد ازدهر بهذا وكانت له دولته، وأصبحت له مكانته المرموقة ومنزلته السـامية، وحسـبنا أن نمعن النظر فى دواوين الفرزدق وجرير والأخطـل والبعيـث وغيرهم من شـعراء الأحزاب الأخرى المتصارعـة مما تزخر به كتب التاريخ والأدب.

وفى مثل هذا الجو المتلاطم بالأحزاب، المتأجج بالفتن، والمتأزم بالتفاخر بالأحساب والأنساب، والعودة إلى الجاهلية الأولى، وبعثها من مرقدها من جديد، وجد الأدب شعره ونثره أرضًا خصبة أنبتت نباتها وآتت أكلها، فوجدت عقول الشعراء المادة الثرية الخصبة، والغذاء الوفير للفكر الأدبى الراقى، والأسلوب القوى، والخيال الخصب، والحماس المتقد.

ونتيجة طبيعية لكثرة الأحزاب السياسـية فى هذا العصـر، إحياء العصبيات القبلية، والرجوع إلى النعرة الجاهلية التى تكمن فى شـعر الأحزاب، والفرق المتطاحنة المختلفة، ممـا جعل الشـعراء يأخذون مـن ماضيهم المعانى المختلفة يسـتعينون بهـا فى التفاخر والتعالى بشرف الأحساب والأنساب، وأى حزب من هذه الأحزاب السياسية الكثيرة أحق بالخلافة، وتولى زمام الأمور؛ معتمدين فى ذلك على ميراثهم من المجد التليد، والشـرف الخالد الذى خلفه لهم الأدباء والأجداد وغير ذلك من الاشياء التى أماتها الإسلام.

وقد سجلت هذه المعارك التى دارت رحاها بين الأحزاب السياسية المختلفة، وأشعلت جذوتها العصبية القبلية شعرًا قويًا ناطقًا بتلك الأمجاد والمفاخر كما نرى ذلك واضحًا جليًا فى شعر ذلك العصر من نقائض ومفاخرات ومناظرات وغير ذلك مما امتلأت به كتب التاريخ.

وإذا كان الأدب فى عصر الدولة الأموية قد تأثر تأثرًا كبيرًا إلى حدٍّ ما بالقديم فأحيا العصبيات القبلية التى أماتها الإسلام والتى ظهر أثرها واضحًا فى شعر الشعراء، ونثر الكتاب والخطباء، فإنه مع كل ذلك كان للإسلام الأثر الأكبر فى الأدب من حيث تقييم المفاهيم الأدبية وتنميق الأدب وتصفيته من الشوائب التى علقت به من آثام الجاهلية والرقى به إلى حد النضج والكمال.

حزب الخوارج

لقد كان الخوارج على كثرة فرقهم دعاة الجمهورية الديمقراطية، وأقوى الجميع عقيدة، تكونوا أول أمرهم «من تميم» ومن جماعة القراء من جند الإمام «سيدنا على بن أبى طالب» رضي الله عنه ثم من أبطال «القادسية» تلك المعركة التى كان يقودها البطل الهمام سيدنا «سعد بن أبى وقاص» رضي الله عنه – وكانوا يكرهون الشيعة والأموية – والسبب فى تسميتهم بالخوارج أنهم خرجوا وتمردوا على الإمام «على بن أبى طالب» رضي الله عنه وأصحابه وقيل إنه اشتق من الخروج فى سبيل الله – عز وجل – وهو مأخوذ من قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١) وسموا أيضًا «بالشراة» يعنى الذين باعوا أنفسهم لله – وهو مأخوذ من قوله سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وقد حاربهم الإمام «على بن أبى طالب» رضي الله عنه فى الوقعة الشهيرة المسماة بـ «وقعة النهروان» وهزمهم هزيمة نكراء، وقتل منهم عددًا كثيرًا بيد أنه لم يأتِ عليهم، ولم يستأصل شأفتهم، ولم يئد فكرتهم، وقد كانوا يقطنون الكوفة، ويحاربون فى صف «على» رضي الله عنه – إلى أن قبل سيدنا «على رضي الله عنه – التحكيم» فعدوا هذا خطأ ونفروا من أن يحكم أحد فى كتاب الله، وقالوا: «لا حَكَمَ إلا لله» وقد جادلهم «على بن أبى طالب» رضي الله عنه بكل

---

(١) سورة النساء: آية رقم ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: آية رقم ٢٠٧.

مـــا يملـــك، ولكنهم تعصبوا لرأيهم، ولم يقبلوا أن يعودوا لســـابق عهدهم، ثم خطب فيهم خطيبهـــم: «أن اخرجـــوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالـــم أهلها فخرجوا إلى قرية قريبة من «الكوفة» تسمى «حَرْوراء» وسموا حينئذ «بالحرورية» كما سموا أيضا «بالمُحَكّمة» يعنى الذين يقولون «لا حكم إلا لله» وأمَّروا عليهم رجلاً منهم اســـمه «عبد الله بن وهب الراســـى» ومن أشـــهر فرقهم: «الأزارقة» وهم أتباع «نافـــع بن الأزرق» و«النجدات» وهم أتباع «نجدة بـــن عامـــر» – والأباضية وهم أتبـــاع «عبد الله بن أباض» و«الصفرية» وهـــم أتباع «زياد بن الأصفر» – وقد بقى «الخوارج» شـــوكة فى جنب الأمويين يهددونهم، ويحاربونهم حربًا تكاد تكون متواصلة فى شـــدة وشـــجاعة نادرة وأشرفوا فى بعض مواقفهم على القضاء على الدولة وما زال، «عبد الملك بن مروان»، و«الحجاج بن يوســـف الثقفى» و«المهلب بن أبى صفرة» يجالدونهم، ويعانون الشدائد فى قتالهم إلى أن هزموهم، وأضعفوا شأنهم وقد امتاز هؤلاء بشدة التدين، والإخلاص فى العقيدة والشجاعة النادرة، والتعصب للعربية الخالصة وهذا هو الذى جعل أدبهم قويًا لحماســـتهم وقوة شـــعورهم ونأيهم عن التقليد وذلك لتصوير نفوسهم الجديدة، مع تأثرهم بالدين والحياة السياسية النادرة، فجاء أدبهم فى ألفاظ منتقاة مع قوة السبك، وفصاحة الأسلوب.

وقد قال فيهم «عبيد الله بن زياد» وقد حكموه فى شأنهم: لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع واشتهرت منهم كثرة كاثرة من الخطباء بـ المصاقع، والشعراء الفحول مثل «أبى حمزة الشـــارى» وقطرى بن الفجـــاءة، والطرماح بن حكيم، وعمران بن حطان، وإسماعيل بن يسار» وغيرهم.

حزب الشيعة

وأما الشيعة (يمينية) فقد نشأت مبكرة، وهى تمثل العصبية الهاشمية التى تقول بخلافة «بنى هاشم»، أو بنسل «على» ابن عم الرسول ووصيه، وكانت نشيطة أيام «على» ثم خمدت على عهد «معاوية» وركدت، ثم نشـــطت عقب مقتل «الحسين» واستمرت حتى آخر الدولة حتى قضت على الأمويين «ولم يكن» للشـــيعة من القـــوة مثل ما للخوارج إخلاصًا لعقيدتهم وفنـــاءً فيهـــا، ولذلك كان أدبهم ضعيفًا حزينًا هو البكاء على حق مســـلوب، والحديث عن بيت الرسول المسقط المهين، هو أدب البكاء والندب لا أدب القوة والثورة والانتصار كأدب الخوارج، وللشـــيعة شعراؤهم كذلك «فالنعمان بن بشير الأنصارى» و«الكميت» أشهر هؤلاء،

ومن الناس من يضع «النجاشى» و«أبا الأسود الدؤلى» و«ابن مفرغ الحميرى»، و«الفرزدق» معهما - ويحسن أن نلاحظ هنا أن الحزب قد اعتمد على الموالى من الفرس خاصة، أو اعتمد عليه هؤلاء الموالى لإسقاط الأمويين، أو لإسقاط الدولة العربية الخالصة وإقامة الهاشميين، أو الدولة العباسية الفارسية، وسنجد أن الدعوة العباسية كانت أول الأمر شيعية خالصة أى لنسل «علىّ بن أبى طالب» وهم الذين عرفوا فيما بعد «بالطالبيين ثم استمالت إلى «العباسيين» آخر الأمر - ولذلك كانت هناك أسرتان - فى العهد العباسى الأول - هاشميتان، متعاديتان: العباسيون، والطالبيون. وفيما هما تتنازعان كان «الفرس» يستيقظون، ويستعدون لإعادة دولتهم الزائلة، فسيطروا على شئون الدولة أخيرًا ثم ذهبوا بسلطان الخلافة، ومزقوا إمبراطوريتها، وانتهت المسألة إلى ذهاب العباسيين وسقوط بغداد، وذلك شىء تقرأ تفصيله فى تاريخ العصر العباسى.

حزب الزبيريين

والزبيرية: فكرة قديمة نشأت منذ وقعة «الجمل» حين وقف «الزبير بن العوام» مع «عائشة، وطلحة» ضد «على» وبدت حين امتنع «عبد الله بن الزبير» عن مبايعة «يزيد بن معاوية» وقد اعتصم «بمكة» وأعلن نفسه خليفة واستولى على «العراق» ومكث واليا تسع سنين، وكان يعتمد على القيسية، ويشايعه عبد الله بن قيس الرقيات من الشعراء، ومصعب أخوه، وزفير بن الحارث الكلابى القيسى، والضحاك بن قيس، وإسماعيل بن يسار النسائى وأبو وجزة السلمى، المعروف «بالسعدى» وغيرهم كثير، واستمر «ابن الزبير» معتصمًا «بمكة» وأخوه «بالعراق» حتى كان زمن «عبد الملك بن مروان» فهزم «مصعبا» وقتله سنة ٧١هـ ودخل «الكوفة» ثم حاصر أهل الشام بقيادة الحجاج مكة وهزموا «عبد الله بن الزبير» وقتلوه سنة ٧٣هـ بعد أن أبلى أحسن بلاء، وبموته هزم الحجاز الذى كان مبعث النهضة وحامل لوائها من عهد رسول الله ﷺ وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات القديمة التى بذلها «الحجاز» لاسترداد نفوذه الأدبى والسياسى.

حزب المهالبة

ولا بأس من ذكر المهالبة أو أنصار «المهلب بن أبى صفرة» وهم أسرة أزدية، عربية عرفت بالكرم والشجاعة، وكانت فى الأمويين «كالبرامكة» للعباسيين خدمة ونكبة، كبيرهم

«المهلب بن أبى صفرة» الذى عمل لبنى «أمية» وحارب عنهم «الأزارقة» وتولى «خراسان» من قبل «الحجاج» الذى كان يلى العراقيين، وقد توفى سنة ٨٣هـ.

ومـن أولاده «يزيد بن المهلـب، والمغيرة بن المهلب» قاتل الخوارج، وكانت له معهم وقائع مأثورة، ومنهم «مخلد بن يزيد بن المهلب» توفى سنة ١٠٠هـ و«حبيب بن المهلب» وكان أول عمل «المهلب» فى عهد «عبد الملك» لما أشار عليه «الأحنف بن قيس» أن يوليه قتال «الخوارج» ثم رأينا «يزيد» ابنه فى عهد «سليمان بن عبد الملك» يفتح بلاد «جرجان وطبرسـتان»، وكان أمير بلاد الشـرق ثم نجد «يزيد» فى السجن أيام «عمر بن عبد العزيز» ثـم يفر منه أيام «يزيد بن عبد الملك» ويخرج عليه فى «العراق» ثم يقتل وبذلك قضى على هـذا البيت الذى كان معقـل اليمنيين الذين حنقوا على «الأمويـين» عقب مصرعهم، وقد مدحهم شـعراء منهم «زياد الأعجم» و«ثابت قطنة» و«كعب الأشقرى»، و«حمزة بن بيض» و«بيهس الجرمى».

هذه كلمة مجملة عن الأحزاب السياسـية التى أثرت فى الأدب الأموى، وجعلته أدبًا سياسـيًا كأنه لم ينشأ إلا لخدمة السياسـة غير أن الأحزاب وحدها لم تستقل بالتأثير فى الأدب بل اتصل بها وانضم إليها عامل آخر قوى له دوره الخطير لا نستطيع تفسير مواقف فحـول الشـعراء إلا إذا أجملنا القول فيه ألا وهو العصبيـة القبلية التى أحياها خلفاء هذه الدولـة بعد أن عمـل النبى وخلفاؤه على قتلها. فقال ﷺ ليس منـا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية واقتدى الخلفاء رضي الله عنهم من بعده عليه السلام به فى إنفاذ هذه التقاليد السمحة الكريمة.

العصبية القبلية

وهذه العصبية تتصل:

١ – بولاية العهد.

٢ – بالقبائل والأسر المشهورة.

ونلخصها فيما يلى لنفرغ للناحية الأدبية الخالصة:

أولاً - ولاية العهد:

كانت ولاية العهد من أسباب سقوط الأمويين وضعفهم كما كانت ظاهرة لعصبية خطيرة شـققت البيت الأموى وأساسـها تعدد ولاة العهد، وحرص الخلفاء على تغييرهم فكان هذا

يورث الانقسام والبغضاء، وينتقل أثره إلى القواد والعمال، تذكر من هؤلاء «مروان، وعبد الملك، والوليد»، ولما تولى «سليمان» انتقم من «الحجاج»،و«قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم» وكان للشعراء فى ذلك جولات خطيرة، ولن ننسى «آل المهلب» الذين خدموا الدولة خدمة جليلة، فقد مات «المهلب بن أبى صفرة» فى قتال «الخوارج» ولكن «يزيد» ابنه قضى عليه «يزيد بن عبد الملك» وأخرب بيته، كل تلك العصبيات حول «الحجاج» وغيره مما هو مفصل فى التاريخ السياسى.

ثانيًا - العصبيات القبلية:

أما العصبيات القبلية، فكانت شرًا مستطيرًا فى حياة هذه الدولة التى نجمل القول فيها هنا ومدارها أمران أثنان:

١ - الخصومة بين «قيس» و «تغلب» فى بلاد الجزيرة والشام.

٢ - الخصومة بين «مصر»، واليمن والعراق، وفى الشرق الإسلامى بوجه عام.

ولا سبيل إلى فهم شعر «الأخطل» بدون المسألة الأولى إذ كان هذا الشعر مرآة صادقة لهذه الخصومة التى قامت بين القيسية والربعية خاصة، ثم بين «قيس» واليمن عامة هذه الخصومة إسلامية حديثة فى أول درجاتها، وكانت فى الجاهلية هينة لا خطر لها ومرجعها اقتصادى قبل كل شىء ثم سياسى بعد ذلك.

وذلك أنه منذ العصر الجاهلى كان يسكن على حدود الشام قبائل يمنية «كغسان» اتخذت لنفسها مواطن على حدود البادية تعيش عيشة البدو، أو ما يقرب من ذلك. وكان الروم قد اصطنعوا هذه القبائل الغسانية، وأقاموا معها علاقات تشبه علاقات الفرس بالمناذرة ليتيسر لها بذلك أن تحمى حدودها الجنوبية، وأن تظفر بنوع ما من السلطان على عرب الجزيرة.

وكان النظام العام لحياة الغساسنة يشبه نظام الإقطاع فى القرون الوسطى، فالرئيس يتخذ له حصنًا فى الصحراء ويعيش فيه معتزًا بطائفة من البدو، ويعتمد على الصيد وعلى الفروسية، وعلى الضريبة التى يفرضها على القوافل التجارية المارة به فيعيش من ذلك عيشة معتدلة، فلما جاء الإسلام ووجهت جيوشه للفتح خارج الجزيرة العربية، وقر فى نفس اليمنية المسلمة أن الشام لهم من قديم، فتهالك الجند اليمن على الشام وانضموا إلى الجيوش الذاهبة إلى الفتوح فيها، ثم ظلت الأجناد عقب ذلك فى بلاد الشام - فى حمص، ودمشق وغيرهما - وظلت الشام من عهد «عمر» إلى عهد «معاوية» مقصورة على

هــذه الأجناد اليمنية فتقرب إليها «معاوية» واســتطاع أن يظفــر بحبها لطول إقامته هناك ولحسن سياسته، وأخيرًا أصهر إليها كما سبق.

بينما كانت الشــام ملــكًا أو كالملك لهذه القبائل اليمنية ســواء منها «الغســانيون» أو «الحميريــون»، الذين وفدوا مع الجيوش أو صاروا إليها للتوطن كان الأمر على عكس ذلك فــى العــراق فالقبائل المضرية نزحــت إليه مبكرة، وكانت لها الكثرة الغالبة هناك شــأن اليمنية فى الشــام، وبعد استقرار الإســلام فى هذه البلاد وتنظيم الهجرة إليها استمر هذا النظام سائدًا فاليمنية إلى الشام والمضرية إلى العراق.

وهكذا حدث فى أوائل العصر الأموى أن ذهبت القبائل القيســية إلى الشام طلبًا لحياة مســتقرة وتكاثرت هناك فاضطر «يزيد بن معاوية» أن ينظم لها هذا الإســتقرار وكانت من ذلك أن اتخذت «القيسية» لها جندًا شمالى «سوريا» هو جند قنسرين متاخمًا للجزيرة التى كانت منذ العصر الجاهلى مستقر القبائل من «بكر وتغلب» فوجدت «قيس» شمالى «الشام» وأصبحت بين «تغلب» فى الشــمال، والقبائل اليمنية فى الجنوب، نشأ عن ذلك طبعًا أن برمت «تغلب» بهذه الجيرة لسببين؟:

١ – اقتصادى: وهو جيرة «قيس» وأرض يعدها «التغلبيون» ملكًا لهم منذ القديم.

٢ – سياســى: وهو أن استقرار «القيســية» هنا سيجعل لها ضلعًا فى الحكم، وسياسة الدولة ونظامها وذلك مع بأس «القيسية» وكثرتها المعروفة تبع ذلك قيام «ابن الزبير» بمكة يدعو لنفســه بالخلافة ويتزعم الدعوة القريشــية، وأنه يطلب «لقريش» حقها فى الخلافة يشــايعه «ابن قيس الرقيات» الشــاعر الغزلى القرشى المعروف، فى حين كان «يزيد» يعتز فى ملكه باليمنية أخواله، وقد استغل «عبد الله بن الزبير» هذا الموقف فاستعان «بالقيسية» فى وجه «يزيد» وأخذت المسألة السياسية تتعقد، فهذان الحزبان كما ترى يثلثهم الشيعة الذين يعتزون بالموالى وبعض «اليمن» لذلك كانت دعوة «ابن الزبير» تلقى رواجًا عريضًا فى جزيرة العرب خاصة، فالتفَّت «المضرية» كلها حوله ومنها «قيس» التى أيدته فى «الشام» و«العراق» و«نجد» و«الحجاز». فلما مات «يزيد بن معاوية» واضطرب حبل «الأموية» وانتهى بقيام «مروان بن الحكم» حدثت واقعة «مرج راهط» المشهورة بين اليمنية والمضرية، أو بين الأمويين والزبيريين وكان الســبب الأول لهذه الخصومة ســببًا اقتصاديًا، فكل من الطرفين كان يريد الاحتفاظ لنفســه بالشــام، وأن يثبت فيها قدمه، ويضعف خصمه، وكلهم كان يتخذ مسألة الخلافة مبررًا لهذه الحرب الاقتصادية أولاً، والسياسية ثانيًا.

انتصـــرت اليمنية، وتم الأمر «لمروان» ثم «لعبـــد الملك» ابنه وكان تعصب اليمنية على «مضر» أولاً ثم «لأمية» ثانيًا بسبب المصاهرة المعروفة، وهذه هى التى حاول اليمنية لأجلها إقامـــة «خالد بن معاوية» مكان «مروان» وإن لم يتم ذلك، فانصرف «خالد» إلى الاشـــتغال بالعلوم الكيماوية كما هو مشهور.

لما انحدرت «قيس» آلت إلى أطراف الشـــام والجزيرة، وتحصنت فى بعض الحصون، وأهمها «قرقيســـياء» علـــى نهر الفرات حيث التجـــأ «زفر بن الحارث الكلابى القيســـى» وأشياعه، ولكن «عبد الملك» تغلب عليه وأنزله من حصنه.

فى أثناء هذه الحوادث انتهزت «تغلب» هذه الفرصة – انتصار «اليمن» على «القيسية» – وأظهرت ضيقها بالقيسية وكان من ذلك حروب «تغلب» و«قيس» المشهورة فى هذا الباب من البلاد الإســـلامية، ووجدت «قيس» نفسها بين «تغلب واليمن» واستمرت الحروب غير نظامية أول الأمر، والســـلطان فى ظاهره مســـتتب للأمويين الذين يشغلهم «ابن الزبير» عن هذه الخصومة بين حين وآخر فى دائرة سلطانها.

وهنـــاك عامـــل قديم قوى التحالف بين «تغلب واليمنيـــة» هو أن «يزيد بن معاوية» منذ ولايته العهد كان قد اســـتغل شـــعر التغلبيين لمخاصمته الأنصار «اليمنية» وكان «الأخطل» هو هذا الشاعر الذى وقف مع «قريش» فى وجه الأنصار. ولكن هذه المحالفة الجديدة بين «اليمن وتغلب» أيام «عبد الملك» غيرت الموقف، فانصرف «الأخطل» عن ذلك وعكف على هذه الحروب بين «تغلب وقيس» يســـجلها ويهجو «قيسًـــا» وأشياعهم فشعره مدحًا وهجاءً وسياســـة وفخرًا يدور حول هـــذه الوقائع وترك الماضى إلا إشـــارات خفيفة. هذا كان فى الشام.

وأما فى «العراق» و«نجد» و«البادية» فلم يكن الأمر خيرًا من ذلك، كانت كثرة «المضرية» مع «ابن الزبير» فقيس كانت زبيرية بالإجماع، وكثير من «تميم» كذلك، ولكن بعض «تميم» كانـــوا أمويـــين عثمانيين «لا مروانيين» وكانوا يرون قتل «عثمان» ظلمًا وأن «عليًا» مالأ على قتله ويدافعون عن العثمانيين غير مســـرفين فى ذلك. وكان بعضها الآخر خارجيًا، ولذلك كانـــت هناك خصومة أيضًا بين تميم العراق ونجد «من العثمانيين» وبين بعض «القيســـية» فى العراق ونجد «من الزبيرية» وكان «الفرزدق» لاعتزازه بتميم قومه الأقوياء يجابه معاوية بشعر فيه جفاء وغلظة لا يستطيعها سواه.

وحـــدث غير ذلــك أن عقدت مخالفات بيـــن «كلب وتميم» وأن بعــض «تميم» حالفوا «القيسية» الزبيرية.

وهكذا كانت القبائل العربية فى العراق مضطربة غير ظاهرة الميل لم تسلم أمرها «لابن الزبير» بصراحة، ولم تسلم أمرها للأمويين بصراحة، وظل العراق لا يعرف كيف ينظم أمره حتى جاء «مصعب بن الزبير» فأخذه عنوة، وظل فيه ضعيفًا حتى قتله الأمويون، واستولوا على «العراق» جميعه.

على هذا الأســاس نستطيع تفســير هذه المواقف التى وقفها الشعراء فى هذه الفترة من التاريخ السياسى والأدبى كذلك، وأدل ما نرى من ذلك هذه المحالفة بين «الأخطل» الشاعر النصرانى التغلبى و«الفرزدق» الشاعر المسلم التميمى فكلاهما كان متصلاً بالحكومة الأموية ممالئًا لها على «القيســية» هذا شــىء ولكنهما كانا على «جرير» وذلك لأن جريرًا وقف فى وجه «تغلب» مع القيسية، ثم كان للخصومة القبلية أثر فيها كان من التهاجى بين «جرير والفرزدق» وقد تدخل «الأخطل» بينهما مع «الفرزدق» مستغلاً ما بينهما من نضال، والعجيب هو موقف الراعى فهو شــاعر «قيس» ولكنه انضم إلى «الفرزدق» على «جرير» فى خصومة عنيفة جدًا، مع أنه قيســى زبيرى الهوى، وكان المفروض أن يكون مع «جرير» لا عليه.

وتفســير هذا الموقف أنه بعد هزيمة الزبيريين أرســل «عبد الملك بن مروان» بشرًا أخاه واليًا على العراق وكانت «أم بشــر» من «القيســية»، فاجتهد «بشر» فى تأليف «قيس» إليه وضمهــم إلــى «بنى أميــة» بعد أن كانوا زبيرييــن، ومن هؤلاء «الراعــى» ومتى انضم إلى السياســة الأموية وتخلى عن الزبيريين فهو مخاصم لكل السياسة القيسية ولذلك انضم إلى «الفــرزدق»، هــذه المحالفة الثلاثية أيام «عبد الملك ابن مــروان» هى محالفة معتمدة قبل كل شــىء على السياسة القائمة بين «مضر وربيعة واليمن» بوجه عام وأساس هذه السياسة أن القبائــل تمالىء الأمويين ممالأة النفاق عند بعض القيســية وممــالأة قوية عند المضرية ومتوسطة عند اليمنية.

هــذه المحالفة بيــن «الفرزدق والراعى» قد تعقدت فيما بعد حيــاة «الراعى» ولكن بعد موتــه وعلى يد ابنه «جندل بن الراعى»، ففى أيام «ســليمان بن عبد الملك» ثارت «تميم» بقيادة «وكيع بن أبى ســود» فى وجه «قتيبة بن مســلم الباهلى القيســى» – قائد الجيوش فى «خراســان» – وقتلت «قتيبة» لأن هذا حاول الخروج على «ســليمان» وتلكأ فى بيعته

وقد سمى لدى «سليمان» بغدر «بنى تميم» وغدر «وكيع» أيضًا فتعرض «الفرزدق» للخليفة وبسط رداءه ليكون ذلك علامة الضمان لوفاء «تميم» وكان أن أرسل «وكيع» بعد ذلك ببيعته «لسليمان» ، أو حدث أن غضبت «قيس» لقتل «قتيبة بن مسلم» ، وأما «الفرزدق» فقد أخذ يعاتب «أمية» أول الأمر ولكن «جندلاً» أسرف فى هجاء «تميم» فاضطر «الفرزدق» أن يهجو كلاً من «جرير» و«جندل» هجاءً مرًا عنيفًا.

وتفصيل هذه القصة بالجزء الأول من النقائض فى شرح نقيضتى «جرير» و«الفرزدق» بهذه المناسبة ، أول قصيدة «للفرزدق» :

تحن بزوراء المدينة ناقتى حنين عجول تبتغى البَوَّرائم(١)

وأما «ذو الرمة» فإنه كان يميل مع «الفرزدق» لعصبية نسبية بينهما – وهذا أمره واضح – فقد كان تغلبيًا ، وكان يتنفس فى جو أضيق من هؤلاء ، إذ انحصرت قصائده بين هذين الحيين ، قومه ، وقيس ، واضطرته المواقف أن يمدح «زفر بن الحارث الكلابى القيسى» لأنه وقع فى يده أسيرًا فأطلقه ، ورد إليه متاعه وأكرمه.

هذه كلمة مجملة عن الأحزاب السياسية التى استحالت أخيرًا إلى فرق دينية تتجادل باللسان بعد أن كانت تتحارب بالسيف وهذا أفاد الأدب من ناحية التفكير العميق المنظم ، والتعبير الدقيق والجدل حول مسائل دينية وسياسية وفلسفية ، كما حاولت بقدر المستطاع أن أكتب فصلاً عن العصبية القبلية ، وما كان بين القبائل والأسر والبطون من خصومات على الرسول ﷺ عمل وخلفاؤه على قتلها وزوالها ، ولعل الذى حمل «معاوية» على إحيائها هو رغبته فى صرف العرب عن التفكير فى اغتصاب الملك وكسر شوكتهم بجعل بأسهم بينهم.

■ ■ ■

(١) الديوان.

سياسة الأمويين - وأثرها فى الأدب

ننتقل الآن إلى الحديث عن السياسة الأموية التى اتسم بها الخلفاء، وكانت لها فى عصرهم ومجتمعهم، مظاهر وصور عامة يجب أن نلتفت إليها، ونحن دخول على تاريخ هذا الأدب، وذكر خواصه الفنية فى هذه الفترة.

١ - تغيير نظام الحكم:

من ذلك أن نظام الحكومة صار ملكًا عضوضًا وراثيًا بعد أن كان أقرب إلى الشورى والديمقراطية، وذلك من شأنه كما حدث أن ينتج فى الأدب لونين متقابلين أحدهما: لون فيه ملق ونفاق رغبة فى العطاء أو رهبة من العقاب. ثانيهما: لون فيه ثورة ومعارضة قوية إما من جانب الحكومة ورجالها لقمع الثورات، وإما من جانب المعارضة فى وجه الحكومة، فإذا كان اللون الأول محافظًا فى الغالب لأنه تقليد لسانى، فإن الثانى مجدد فى الغالب لأنه تعبير قلبى عن شعور حاضر حديث توفى به المواقف الجديدة.

٢ - عروبة الحكومة:

ومن ذلك أن الحكومة كانت عربية خالصة أولاً وفيها عصبية قرشية أحيانًا، وذلك سمح للتقاليد العربية أن تسود من جهة، ولكثير من مظاهر الجاهلية أن تستمّر ولا سيما أن الإسلام لم يستطع فى هذا القرن الأول أن يُذْهب تقاليد الجاهلية جملة، فبقى الخلفاء – كرؤساء الجاهلية – خطباء أو شعراء أو معنيين بالأدب يسألون عنه أو يكرمون رجاله، ويتأثرون به، ويكادون لا يعرفون سواه، ويشجعونه أكثر مما يشجعون العلوم، وكان رجالهم عربًا، فكان من الطبيعى أن ينزع الشعر إلى التشبث بالطابع العربى، وكذلك النثر جملة وأن تكون المثل المحتذاة كذلك، فالمدح يتجه إلى الكرم والشجاعة والنجدة لا بالتصوف ولا بالديمقراطية.

٣ - انتقال العاصمة إلى دمشق:

ومن ذلك الاستقرار النسبى الذى ظفرت به الأمة الإسلامية فى هذا القرن منذ اتخذت «دمشق» عاصمة الحكومة الأموية واجتهدت أن تخضع العواصم الأخرى لسلطانها السياسى

والأدبــى، «كمكــة والمدينة» والكوفة، والبصرة، والفســطاط وقرطبة» فذلك صرف الأطماع العامة بعض الشيء، ووقر فى نفوس الشعوب أن هناك سلطانًا يجب أن يخدم ويعمل فى ظلــه كما وجه الإنتاج الأدبى خاصة إلى ناحية الشــام بــلاد الحكومة ومقر الخلافة فكان الشــعراء ينشــأون فى «العراق» وبواديه، وفى «الحجاز ونجد» ويرحلون إلى دمشق لعرض الشعر على الخليفة ترضية وانتفاعًا، وكان الخلفاء يستقدمون العلماء والأدباء لتعليم الأبناء، والاستفسار عن مسائل علمية وأدبية.

٤ - ظهور العناصر الأجنبية:

ومن ذلك دخول العناصر الأعجمية فى تكوين الأمة الإسلامية وذلك عن طرق شتى:

١ – منها الذين دخلوا فى الإسلام واعتنقوه.

٢ – ومنها الذين عاشــوا بين المســلمين ولم يســلموا، ولكنهم كانوا على صلة نفســية وتجارية واجتماعية مع المسلمين.

٣ – ومنها الرقيق الذى كان يدخل البيوت الإسلامية، ويكون عنصرًا من أسرها.

وكل أولئك كانت لهم ذهنياتهم وأفكارهم الأجنبية، والتى كانت مددًا للأدب الإسلامى إلى حد ما، وذلك فوق ما وجد المســلمون فى البلاد المفتوحة من آثار ومظاهر الحضارات الفارسية، واليونانية والهندية، والمصرية والأوربية.

وكل تلك من شأنها أن تؤثر فى نفوس الأدباء، وإن لم يبلغ مبلغه فى الدولة العباسية.

٥ - العصبية العربية:

لقد أحيا «معاوية» العصبية العربية التى حرم الإســلام الاعتضاد بها، والدعوة إليها، وكان فــى إحيائها حياة لكثير من أمور الجاهلية مــن المهاجاة والمفاخرة، والاجتماع فى الأســواق بكناســة «الكوفة» أو مربد «البصرة» «على» غرار ما كانت عليه فى عهد الجاهلية بســوق «عــكاظ» وغيره متدلين إلى ذكر المثالب الخاصــة، والمعايب الفردية والمخازى، التماسًــا للغلبة الدنيئة، ولقد اضطرمت هذه العصبية وقوى شأنها، وعادت جذعة فأصبح فى كل بلد إسلامى فريقان «مضرى ويمنى»، وافترق كل فريق إلى شيع وأحزاب، واستباح القوم فى ســبيل إثارة هذه الروح كل محرجة، وشاء الله أن يكون للعصبية دخل فى تولية الخلفاء والأمراء وقادة الجند، كما كان لها سبب فى القضاء عليهم وزوال ملكهم.

٦- وسائل تقريب وإغراء:

(أ) كان «معاوية» يترك خصومه أحرارًا يقولون ما يريدون عملاً بسياستـه التى أعلنها بقوله: «وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القبائل بلسانه فقد جعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى» ولهذا كان يسمع هجاءه بأذنه، فيعفو ويصفح. يقبل من العلوى أو العلوية النقد والتوجيه فى مجلسه وبين أمرائه وبمسمع من حجابه ثم لا يكون منه إلا إجزال العطية والحمل على أوطأ مركب.

وهو القائل «لعمرو بن العاص»: «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» قال عمرو: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إن هم شدوا أرخيت، وإن هم أرخوا شددت».

(ب) كذلك بذل المال وقطع الألسنة بالعطاء، والزيادة فيه على حسب ما تقضى الزيادة، وساق أكثر هذا المال إلى أهل المدينة من المهاجرين والأنصار حتى لقد ضاعف عطاء «الحسن والحسين» عليهما السلام – إلى مائتى ضعف عما كان يعطيه «عمر» رضي الله عنه فقد كان خمسة آلاف درهم، فجعله ألف ألف، ولقد كان من أثر ذلك المال المتدفق على المدينة أن لانَ أحداثها الناشئون وفسدَت غرائزهم، ووجد الطرب والشراب مجالاً واسعًا ومكانًا فسيحًا، وكانت القيان تنقل من بلاد «فارس» لتباع فى «المدينة» حتى صارت أكثر بلاد الإسلام مغنين ومغنيات، ومنها انتشر الغناء فى المملكة العربية.

(ج) بل جعلوا للشعر نصيبا من بيت المال مع أن المال لا يستحق إلا من جاهد واشترك فى الغزوات، وتلك بدعةَ ابتدعوها ليشتروا بها ألسنة الشعراء ليمدحوهم ويبالغوا فى وصفهم وما زال المال يصرف فيما أبطله من مظالم بنى أمية.

وبعد

فهذه كلمة عن سياسة الأمويين التى ساروا بها فى أمور الدولة ومنها يتضح أنه لم تكن سياسة إسلامية تجمع الناس فى ذات الله على سواء، وتأخذ من مسيئهم لمحسنهم، ومن قويهم لضعيفهم، وتؤدى صدقات المسلمين فى وجهها، التى شرعها الله، ولكنها كانت سياسة ملك عضوض وعصبية ذميمة، وبذل المال حيث لا تنفع القوة، استشرى الفساد وأهملت الحدود وشربت الخمور وارتكبت الفواحش وكثر المخنثون، وفى سبيل تثبيت ملكهم ارتكبوا من الفظائع والأهوال ما تقشعر له الأبدان، فهم قد ذبحوا ابن الرسول ﷺ

على بطحاء «كربلاء» وطوقوا بقية هذه السلالة الطاهرة بالقتل والتشريد، وهم قد استباحوا مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام كما تستباح بلاد العدو بعد الحرب الطاحنة، وهم قد أحرقوا أستار الكعبة وسلطوا عليها المنجنيق وهم قد تغاضوا عن ظلم ولاتهم وتعسفهم أمثال «زياد والحجاج» وإسـرافهم فى سـفك الدماء، ولكننا إنصافًا لهذه الدولة نذكر أنها أتمت سلسلة الفتوح الإسلامية حتى وصلت إلى بلاد الأندلس غربًا وإلى أسوار القسطنطينية شمالا، ولم تفتتن بمناهج وتقاليد البلاد المفتوحة كما افتتن بها العباسيون من بعدهم.

■ ■ ■

الشعر فى عصر بنى أمية

نلاحظ أن تطور الشـعر أبطأ من تطور النثر، وذلك لأن الشـعر يقوم على العاطفة وهى قائمـة علـى ملكة فنية بطيئـة التطور، وإن كانـت خالدة فى أصلها بخـلاف النثر فهو قائم على العقل وهو خاضع وقابل للتطور أسـرع من الشـعر لذلك كان النثر أسـبق وأسرع وبخاصة أن النثر لغة ثقافية وهذه تسير بسرعة وسهولة عن تطور الطبع والفن الشعرى منذ صدر الإسـلام وجدنا الأحاديث والخطابة تشـربت روح الإسلام واستوعبتها، ولكن الشعر لم يسـتقم إلا بعد ذلك بجيل، وكذلك الشـأن فى العصر العباسـى نجد الخطابة والكتابة والتواليف العلمية تجرى إلى التطور والرقى فى حين أن الشـعر المحدث أخذت تتنازعه عوامل تجذبه إما إلى الوراء وإما إلى الأمام، ولم يسلم مطلقا من التقليد.

ونلاحظ أن رجال النثر يكونون فى العادة أحسـن ثقافة من الشـعراء إلا القليل النادر «كأبى تمام والمتنبى والمعرى» وهذه الميزة الثانية تكون لنا مفتاح هذه المسألة؛ النثر أسرع إلى التطور وأطوع للاسـتمالة لأمور منها: أن الشـعر، لأنه أدخل فـى باب الفنية، يقوم على التقليد والالتفات إلى الوراء فيتوقف ويبطىء فى السـير، وأما النثر فلأنه أدخل فى باب العلمية والنفعية نجده أشد اتصالا بالحياة الجارية والمسائل الواقعية يحرص عليها، ويعبر عنها مجاراة للواقع فمثله فى الغالب ابتكارية تعمد إلى الجديد المسـتحدث وتنظر إلى الأمام وقلما تلتفت إلى الماضى.

٢ – ومنها أن الشعراء أنفسهم لاعتزازهم بخاصتهم الفنية لا يعنون بالثقافة وما تتطلبه المعانـى الجديدة من تحصيل ومجاراة فيقعون بفنهم عند القديم، وإذا وقفنا عند الخطابة فى صدر الإسـلام نجد أنها قد شـربت روح الإسلام وتعاليمه عن الشعر لأنها تعبير مباشر صريح عن تقاليد الدين وملابسـاته بخلاف الشعر فهو محتاج إلى ملكة نفسية فنية تتكون وتنضج قبل أن تنشىء وتثمر. يجتهد الكاتب دائمًا أن يظفر بنصيب من الثقافة والتهذيب الفنى يقابل ما عند الشعراء من موهبة فنية تبدو فى القريض.

٣ – ومنها أن الصورة الفنية اللفظية للشعر أبطأ تطورًا لحاجتها إلى تجديد فى الأوزان والقوافى والتقاليد الخاصة بمطالع القصائد وختامها وصورها الخيالية المبتكرة، وهذه يكون

من العســير التجديد فيها لأن صور الشــعر نوع من التبلور الفكرى أو النفسى أو الخيالى، وذلك لا يتم ســريعًا بخــلاف النثر فلأنه يتحلل من الوزن والقافية يفــرغ لمعانيه وأفكاره ومعاييره التى يجد التصرف فيها أسهل وأيسر فصعوبة النثر فى معانيه وصعوبة الشعر فى صوره وموازينه.

٤ – ومنها أن الشــعر هو الصورة الســاذجة للحياة الإنسانية وهى صورة عاطفية، ولكن النثــر هــو الصورة العقلية المتحضرة التى تأتى متأخرة – فالشــعر ثم الخطابة ثم الكتابة، ومعنــى ذلــك أن هذه الصورة الســاذجة – لأنها لغة العاطفة والعاطفــة خالدة مهما تتغير أشكالها – تبقى خالدة أى باقية قلما تتطور وتستميل وأن الصورة الحضرية الطارئة تصور العقــل، والعقــل نهم جبار متجدد تكون صورته اللفظية كذلك متجددة، إذًا العقل يســبق العاطفة فى التطور.

هذه المسألة تستلزم أن نؤرخ للنثر قبل الشعر مسايرة لهذا التطور السريع فى النثر تبعًا لأحداث التاريخ، ولكن لما كان الشعر أسبق إلى الوجود، وكان الشعر الإسلامى إلى حد ما امتدادًا للشعر الجاهلى، وكان الفن الأهم من النثر وهو الكتابة قد تأخر فى الوجود إلى أول القرن الثانى ناسب أن نستمر فى تاريخ الشعر تاركين الكلام على النثر إلى ما بعد ذلك.

فإذا وقفنا عند النشــاط الأدبى فى العصر الأموى وجدناه ينتهى إلى الشــعر والخطابة والكتابــة، ثم حركة التدوين والنقل التى بدأت ناشــئة فى هــذه الفترة وهذه الأنواع كلها كانت ثورة على نظام وضع ليقيم الديمقراطية الإســلامية مكان الأرســتقراطية القرشــية أو القوة الجاهلية.

فقــام الأمويون يعيدون مجد «قريش» أو مجــد الأمويين ويقيمونه ملكا عضوضا، ولذلك أثره فيما حدث من أحزاب وعصبيات اســتلزمت السيف والقلم، وانتهت بمصرع الأمويين حينما قامت الأرســتقراطية الهاشمية، ومعها الفارســيون يقيمون مجدًا على أنقاض هؤلاء وهكذا دواليك، ونقول إن هذا الأدب سياسى مقابلين بينه وبين الأدب الجاهلى الصحراوى والأدب العباســى الحضرى أو العلمى لقيامه على عناصر اجتماعية مدنية وفلسفية كما هو واضح من تاريخ الأدب العباسى نفسه.

خصائص الشعر الأمويّ

وللشعر الأموى ميزاته الإسلامية الطارئة، ونجملها هنا فى الآتى:

١ – من الناحية الموضوعية: (فنونه)

وإنما نريد بالناحية الموضوعية هذه الفنون التى تناولها الشعر الأموى، وكان فيها جديدًا أو كالجديد، وسواء أكانت الجدة إيجابية بإيجاد فنون حديثة أم سلبية بإماتة فنون أو تركها كما هى، وإن هذا الغرض الأخير لم يحدث وليس من طبيعة الأشياء أن يحدث مطلقًا، لذلك كان من الحق علينا أن ندير البحث فى هذه الناحية حيث النظام الآتى:

١ – الفن الجديد.

٢ – الفن الذى مات.

٣ – الفنون المتجددة.

■ ■ ■

الشعر والشعراء

عوامل نهضة الشعر فى عصر بنى أمية

حظى الفن الشعرى بنهضة كبيرة إبان حكم الأمويين لما توافر له من عوامل ساعدت على ازدهاره ونهضته ومن هذه العوامل:

عناية الخلفاء الأمويين:

كان خلفاء بنى أمية عربا خلصا لم تخالطهم شوائب العجمة، فكان لهم ذوقهم العربى المطبوع، وسليقتهم العربية الخالصة، فكانوا يهتمون بالشعر يستمعون إليه، ويتذوقونه، بل وينقدونه ويكافئون على الجيد منه.

وطبيعى أن يلقى الشعر فى هذه الأجواء اليد التى ترعاه وتغدق عليه نهضة وازدهارا كبيرين.

ظهور الأحزاب السياسية:

أومأنا آنفا إلى ظهور الأحزاب السياسية فى ذلك العصر، وأشرنا إلى دورها فى الأدب، حيث خلقت هذه الأحزاب مجالات واسعة للقول فانبرى الشعراء يؤيدون حزبهم الذى ينتمون إليه، يشرحون مبادئه، ويدافعون عنه، وينتقصون خصومهم، ويدحضون حججهم.

وقد خلف لنا العصر الأموى أشعارا كثيرة كانت نتاجا لهذا المعترك السياسى بين الأحزاب التى ظهرت على الساحة السياسية حتى إن الكميت بن زيد الأسدى جعل ديوانه «الهاشميات» وقفا للدفاع عن حزب الشيعة ومناصرتهم.

إحياء التراث العربى القديم:

نشطت فى هذا العصر فكرة إحياء التراث العربى القديم، ولا سيما الشعر الجاهلى والإسلامى، والعمل على تدوينه وحفظه ومدارسته، مما أوجد حلقة وصل بين شعراء هذا العصر، وأسلافهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، مما كان له دوره البالغ فى النهوض بالشعر والعمل على تنشيطه وإذاعته.

إحياء العصبيات القبلية وخلق العصبيات الأدبية:

عمل معاوية بن أبى سفيان منذ اعتلائه عرش الخلافة على إحياء العصبيات القبلية القديمة والتى كان الإسلام قد قضى على أكثرها، وكان هدفه من ذلك الصنيع أن يشغل الناس عن أمر الخلافة.

كما عمل بعض الخلفاء على إحداث نوع من العصبية عند الشعراء أنفسهم فظهر ما عرف فى الأدب العربى باسم النقائض التى أبرز رجالها جرير والفرزدق والأخطل.

وقد كان لهذه العصبيات القبلية والأدبية أصداؤها فى ديوان الشعر الأموى.

الترف الذى عاش فيه الشعراء:

كان من سياسة الأمويين التى انتهجوها أن يصرفوا الناس عن التفكير فى أمر الخليفة بكل طريقة ممكنة، وقد رأوا أن يحصروا أبناء المهاجرين والأنصار فى الحجاز (مكة والمدينة) وأن يمنحوهم من الأموال ما يجعلهم يعيشون فى ترف وبذخ يلهيهم عن الخلافة وكان نتيجة لهذا الترف أن ظهر ذلك الشعر الغزلى الذى يمثله عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعرجى وسواهم.

■ ■ ■

موضوعات الشعر الأموى

عندما نتعرض لدراسة موضوعات الشعر فى عصر لاحق للعصر الجاهلى فإننا نميز بين نوعين من أغراضه: الأغراض القديمة أو التقليدية، والأغراض الجديدة أو المستحدثة.

وغالبا ما نذكر فى النوع الأول ما طرأ على أغراض الشعر القديمة من تطور، وما لحقها من تجديد، بينما نناقش فى النوع الثانى الظروف والعوامل التى دعت إلى وجود الغرض الشعرى المستحدث، وليس العصر الأموى خارجا عن هذه القاعدة إذ يمكن تقسيم أغراض الشعر فيه إلى أغراض قديمة وأخرى جديدة.

الأغراض القديمة:

المدح: المدح هو من الأغراض الأصيلة فى ديوان الشعر العربى، وقد كثرت قصائد المديح فى هذا العصر وزادت صلتها بالسياسة، واتسعت لتشمل الخلفاء، ورجال الأحزاب، والأبطال والقادة ورجال السياسة.

وبقيت معانى المديح القديمة باقية فى القصيدة الأموية، وزادت عليها بعض المعانى الأخرى التى اقتضتها ظروف الحياة.

يقول الدكتور شوقى ضيف: «والحق أن قصيدة المديح اختلفت فى هذا العصر بالقياس إلى صورتها القديمة لاختلاف الحياة العربية، أو قل لتطورها وما حدث فيها من انقلاب سواء من حيث نظام الدولة، أو من حيث تصور الناس للخلافة، وما ينبغى أن يكون عليه الخليفة، وكان الشاعر الأموى ما يزال يطلب التجديد والتغيير فى الإطار القديم لهذه القصيدة»[١].

وقد حرص الشعراء على استجلاب المعانى الدينية وتضمينها قصيدة المديح، يقول الفرزدق فى مدح الحجاج[٢]:

ولم أر كالحجاج عونا على التقى ... ولا طالبا يوما طريدة تابل[٣]
بسيف به لله تضرب من عصى ... على قصر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع ... به ريبة بعد اصطفاق الزلازل

---

(١) التطور والتجديد ص١٤١.

(٢) ديوانه ص ٦٩٥.

(٣) التابل: صاحب الثأر.

وكنا بأرض يا ابن يوسف لم يكن … يبالي بها ما يرتشي كل عامل
وما تبتغي الحاجات عندك بالرشى … ولا تقتضى إلا بما فى الرسائل
فما الناس إلا فى سبيلين منهما … سبيل لِحقّ، أو سبيل لباطِل

ومن مداح هذا العصر البارزين الشاعر الأخطل (غياث بنَ غوث) وأكثر مدائحه فى عبد الملك بن مروان، وفيه يقول[1]:

وما الفرات إذا جاشت غواربه … فى حافيته وفى أوساطه العشر
وزعزعته رياح الصيف واضطربت … فوق الجآجئ من أذية غَدْرُ
مسحنفر من جبال الروم يستره … منها اكافيف فيها دونه زور
يوما بأجود منه حين تسأله … ولا بأجهر منه حين يجتهر
مفترش كافتراش الليث كلكله … لوقعة كائن فيها له جزر
مقدما مائتى ألف لمنزلة … ما أن رأى مثلهم جن ولا بشر
يغش القناطير يبنيها ويهدمها … مسوم فوقه الرايات والقتر
حتى يكون لهم بألطف ملحمة … وبالثوية لم ينبض بها وتر
وتستبين لأقوام ضلالتهم … ويستقيم الذى فى خده صعر

الهجاء:

ازدهر شعر الهجاء فى هذا العصر بسبب العصبيات القبلية والأدبية التى عمد الأمويون إلى بعثها وإحيائها، فضلا عن أحداث السياسة التى جعلت من الأحزاب جماعات متباغضة تهجو كل واحدة منها أختها.

ولعل الجديد فى شعر الهجاء فى هذا العصر أنه تحول إلى عمل منظم بين أفراد أو مئات، فالشعراء يجتمعون فى الأسواق الأدبية (كسوقى المربد والكناسة) ينشدون أشعار الهجاء، والناس يلتفون حولهم مستمعين معجبين بإتقان.

وقد كان الهجاء فى بعض الأحيان يتحول إلى ضرب من اللهو الذى يراد به إرضاء الجماهير دون أن يكون القصد فيه ذم المهجو أو انتقاصه.

وكان من تطور الهجاء فى ذلك العصر أن ظهر ما عرف فى الأدب العربى بالنقائض التى اشتهر بها الفرزدق وجرير والأخطل.

---

(١) كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.

هذا ويمكن تقسيم شعر الهجاء فى عصر بنى أمية إلى نوعين:

الهجاء الشخصى أو الفردى: وهو ما كان الدافع إليه بواعث شخصية.

والهجاء السياسى: وهو ما كان الدافع إليه بواعث سياسية.

فمن الهجاء الشخصى قول الشاعر أبى جلدة اليشكرى فى رجل اسمه حصين بن منذر:

لعمرك إنى يوم أسند حاجتى   إليك أبا ساسان غير مسدد

فلا عالم بالغيب من أين ضرّه   ولا خائف بث الأحاديث فى غد

فليت المنايا حلقت بى صروفها   فلم أطلب المعروف عند المصرد

فلو كنت حرّا يا حصين بن منذر   لقمت بحاجتى ولم تتبلد

تجهمتنى خوف القرى وأطرحتنى   وكنت قصير الباع غير المقلد

ولم تعد ما قد كنت أهلا لمثله   من اللؤم يابن المستذل المعبد[1]

ومن الهجاء السياسى ما قيل فى معاوية بن أبى سفيان:

(معاوى) إننا بشر فاسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا وجذذتمونا   فهل من قائم أو من حصيد

فهبنا أمة هلكت ضياعا   يزيد أميرها وأبو يزيد

الرثاء:

الرثاء هو ما قيل فى بكاء الميت والتفجع عليه.

وهو غرض قديم فى الشعر العربى يتسم بصدق العاطفة وحرارتها لا سيما إذا كان المتوفى قريبا أو صديقا أو عزيزا.

ولعل السمة العامة فى الرثاء متقاربة فى أكثر العصور الأدبية فهو يتناول أخلاق المرثى وفضائله.

وقد رثى شعراء هذا العصر من مات من الأفراد كما رثوا الخلفاء والقواد والوزراء ومن إليهم.

---

(١) الأغانى ج١١ ص٣٠٤.

يقول الأبيرد بن المعذر الرياحى يرثى أخاه بريدا[1]:

تطاول ليلى لم أنمه تقلبا ... كأن فراشى حال من دونه الجمر
أراقب من ليل التمام نجومه ... لدن غاب قرن الشخص حتى بدا الفجر
تذكرتُ قرما بَانَ منا بنصره ... ونائله يا حبذا ذلك الذكر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فقد عذرتنا فى صحابته العذر
وكنت أرى هجرا فراقك ساعة ... إلا لا بل الموت التفرق والهجر
أحقا عباد الله أن لست لاقيا ... بريدا طوال الدهر ما لألأ العفر[2]
فتى ليس كالفتيان إلا خيارهم ... من القوم جزل لا قليل ولا وعر
فتى إن هو استغنى تخرق فى الغنى ... وإن كان فقر فلم يدع متنه الفقر
وسامى جسيمات الأمور فنالها ... على العسر حتى أدرك العسر اليسر
ترى القوم فى العزاء ينتظرونه ... إذا شك رأى القوم أو حزب الأمر[3]

الغزل:

الغزل غرض قديم قدم الشعر العربى وقد كان الجاهليون يستفتحون به قصائدهم بهدف جذب القلوب واستمالة الأسماع.

وقد عرف فى عصر بنى أمية نوعان من الغزل: نوع يأتى فى بدء القصائد على سبيل التقليد للأقدمين، وآخر يأتى فى قصائد مستقلة.

وقد اشتهر فى هذا العصر جماعة من شعراء الغزل عرف كل واحد منهم بامرأة نسب إليها مثل جميل بثينة، وكثير عزة، ومجنون ليلى وغيرهم.

كما وجد ذلك اللون من الغزل الذى عرف باسم الغزل العذرى وهو غزل خالص عفيف ينسب إلى قبيلة عذرة.

ومن أشهر قصائد الغزل الأموية رائعة أبى صخر الهذلى التى يقول فيها[4]:

لليلى بذات البين دار عرفتها ... وأخرى بذات الجيش آياتها عفر
فكأنهما ملآن لم يتغيرا ... وقد مر بالدارين من بعدنا حصر

---

(١) الأغانى ١٥٣/١٣، والعقد الفريد ٢٧٥/٣، وأمالى اليزيدى.
(٢) المراد ما دكت الظباء أذنابها، وهذا كناية عن التأبيد.
(٣) حزب الأمر: أشتد.
(٤) شعراء أمويون ص٩٣ وما بعدها.

وقفت برسميها فلا تنكرا صدفت وعينى دمعها سرب همر
وفى الدمع إن كذبت بالحب شاهد يبين ما أخفى كما بين البذر
صبرت فلما عال نفسى وشفها عجاريف تأتى به غلب الصبر
إذا لم يكن بين الحبيبين ردة سوى ذكر شىء قد مضى درس الذكر
إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر
إذا ذكرت يرتاح قلبى لذكرها كما انتفض العصفور بلله القطر

الوصف:

شاع شعر الوصف فى هذا العصر حيث وصف شعراء بنى أمية كل ما وقعت عليه نواظرهم من أرض وسماء وصحراء، وإبل وحيوانات وطيور، كما وصفوا الخمر، والقصور والبساتين، والجيوش والأسلحة، وقد أتم وصفهم بروعة التصوير وابتكار المعانى.

يقول المقنع الكندى فى وصف العلم[1]:

قلم كخرطوم الحمامة مائل مستحفظ للعلم من عنّامه
يَسِمُ الحروف إذا يشاء بنائها لبيانها بالنقط من أرسامه
من صوفة نفث المداد سخامه حتى تغير لونها بسخامه
يخفى فيقصم من شعيرة أنفه كقلامة الأظفور من قلامه
وبأنفه شق تلاءم فاستوى سقى المداد فزاد فى ثلامه
مستعجم وهو الفصيح بكل ما نطق اللسان به على استعجامه
وله تراجمة بألسنة لهم تبيان ما يتلون من ترجامه

الأغراض المستحدثة
المدارس الجديدة فى الشعر الأموى

شهد هذا العصر من الأحداث والتطورات ما أدى إلى ظهور بعض الأغراض المستحدثة فى الشعر الأموى، وقد حمل لواء كل غرض منها جماعة من الشعراء كونوا اتجاها خاصا أو مدرسة شعرية.

(١) الحيوان للجاحظ ٦٥/١، وشعراء أمويون ص٢١٢، ٢١٣.

مدرسة شعراء السياسة:

وقد نشأت هذه المدرسة الأدبية كرد فعل للصراع السياسى والتنازع بين الأحزاب، ويمثل هذه المدرسة جماعة من الشعراء عرفوا بالانتماء إلى حزب سياسى بعينه فمن هؤلاء الكميت بن زيد الأزدى شاعر الهاشميين، وعبد الله بن قيس الرقيات شاعر الحزب الزبيرى، وقطرى بن الفجاءة شاعر الخوارج، ومن شعراء الحزب الحاكم، وهم كثرة، عدى ابن الرقاع، وعبد الله بن خارجة.

وقد سبق من ذكر الأحزاب السياسية وأخبار شعرائها ما يغنى عن إعادة ذكره هنا فارجع إليه فى موضعه.

لكن نورد هنا نموذجا يمثل ذلك الشعر السياسى، يقول الكميت فى مدح آل البيت:

إلى النفر البيض الذين بحبهم	**إلى الله فيما نالنى أتقرب**
بنى هاشم رهط النبى فإننى	**بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب**
خفضت لهم من الجناح مودة	**إلى كنفٍ عطفاه أهل ومرحب**
وما لى إلا آل أحمد شيعة	**وما لى إلا مذهب الحق مذهب**
فقل للذى فى ظل عمياء جونة	**يرى الجور عدلا لا إلى أين تذهب**
بأى كتاب أم بأى سنة	**ترى حبهم عارا على وتحسب**
وقالوا أورثناها أبانا وأمنا	**وما ورثتكم ذلك أم ولا أب**
يرون لهم حقا على الناس واجبا	**سفاها وحق الهاشميين أوجب**
يقولون لم يورث ولولا تراثه	**لقد شركت فيه بُكيلٌ وأرحب**

مدرسة شعراء النقائض:

النقائض جمع نقيضة وهى مأخوذة من النقض وهو فى الغزل الحل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [سورة النحل: آية ٩٢]، وفى البناء الهدم.

والنقائض قصائد ظهرت فى العصر الأموى تقوم على الفخر والهجاء، وطريقها أن يقوم أحد الشعراء بنظم قصيدة مفتخرا بنفسه هاجيا صاحبه وقومه، فينظم الشاعر الآخر قصيدة على وزنها ورويها، عادة، يعارض فيها قول الأول وينقضه.

وقد كان للصراع القبلى الذى عمد الأمويون إلى إحيائه دوره فى إذكاء هذه النقائض وكثرتها.

واشتهر من شعراء النقائض فى هذا العصر الفرزدق وجرير والأخطل.

وتأتى أهمية النقائض فى هذا العصر من عدة جوانب:

١ - أنها تمثل تطورا جديدا فى الفكر العربى لاعتمادها على طرق الاستدلال والبرهنة فى المسائل والمشاكل.

٢ - أن النقيضة كانت تعد عملا أدبيا يستغرق جهدا معقدا لاتساع فصولها وموضوعاتها وتعرضها لشئون الأمة الاجتماعية والسياسية والعقلية.

٣ - أن هذا الفن الشعرى استعان أصحابه بتوليد المعانى وتركيبها على نحو غير معهود فى العصرين السابقين لعصر بنى أمية[١].

نموذج لفن النقائض بين الفرزدق وجرير:

قال الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

بيت بناه لنا المليك وما بنى ... حكم السماء فإنه لا ينقل

بيتا زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا ... برزوا كأنهم الجبال المثل

لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم ... أبدا إذا عد الفعال الأفضل

من عزهم جحرت كليب بيتها ... زربا كأنهم لديه القُمَّلُ

ضربت عليه العنبكوت بنسجها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل

أين الذين بهم تسامى دارما ... أم من إلى سلفى طهية تجعل

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جنا إذا ما نجهل

فادفع بكفك إن أردت بنائها ... نهلان ذا الهضبات هل يتحلحل؟

يا بن المراغة أين خالك؟ إننى ... خالى حبيشٌ ذو الفعال الأفضل

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حباء جفنة ينقل

إنا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلف أتانه يتنقل

وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا ... إن اللئيم عن المكارم يشغل[٢]

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز وشرح النقائض.

(٢) النقائض لأبى عبيدة ١٦٨/١.

فرد عليه جرير:

أعددت للشعــراء سمــا نــاقعـا	فـسقـيـت آخـرهم بـكــأس الأول
لمـا وضعـت علـى الفـرزدق ميسمى	وضفا البعيث جدعت أنف الأخطل
أخزى الذى سمك السمـاء مجـاشعـا	وبنى بناءك فى الحضيض الأسفـل
ولـقـد بنيت أخـس بيـت يبـتـنـى	فهدمت بـيـتَـكـمُ بمثلـى يذبـل[1]
إنـى بـنـى لـى فـى المـكـارم أولـى	ونفخت كـيـرك فـى الزمـان الأول
أعـيـتـك مـأثـرة القـيـون مجـاشـع	فـانظـر لعـلـك تدعـى مـن نهشـل
وأمـدح سـراة بــنــى فـقـيـم إنــهـم	قـتـلوا أبـاك وثـأره لــم يـقـتـــل
إنى انصبـبــت مـن السـمـاء عليكـم	حتـى اختطفتـك يا فرزدق من عل
أحــلامـنـــا تزن الجـبـــال رزانـة	ويفـوق جــاهـلـنـا فعـال الجـهـل
فـارجـع إلـى حكمـى قريـش إنـهـم	أهــل النـبــوة والكتــاب المنـزل
إن الـذى سمـك السـمــاء بنـى لنــا	عزا علاك فـمــا لــه مـن مـنـقـل

مدرسة شعراء الشعوبية:

يقصد بالشــعر الشــعوبى: ذلك الشعر الذى يدعو إلى تفضيل الجنس غير العربى وربما الانتقاص من شأن العرب والتعريض بهم.

وقــد عرف بنو أمية بعروبتهــم الخالصة وتعصبهم لها فعملوا علــى إقصاء الموالى من الفــرس وغيرهم عن شــئون الدولة ممــا أورث فى نفوس هؤلاء حقدا دفينــا على العرب، فانطلقت ألسنتهم مفتخرين بأصولهم غير العربية.

ومن شعراء هذه المدرسة إسماعيل بن يسار، ومحمد بن يسار، وإبراهيم بن يسار، وزياد الأعجم، ونصيب وغيرهم.

يقول إسماعيل بن يسار:

رب خــال مــتــوج لــى وعــم	مـاجد محتـدى كـريـم النصـاب
إنمـا سمـى الفوارسٍ بـالفـرس	مـضـاهـاة لـرفـعــة الأنــســاب
فاتركـى الفخـر يــا أمـام علينـا	واتركى الجور وانطقى بالصواب

(١) يذبل اسم جبل.

واسألى إن جهلتِ عنـا وعنكم كيـف كنـا فى سالف الأحقـاب
إذ نـربـى بنـاتـنـا وتـدسون سـفـاهـا بـنـاتـكـم فـى التـراب

سمات الشعر الأموى وخصائصه

الألفاظ:

مال شعراء هذا العصر إلى سهولة الألفاظ وجر الغريب منها، وقد ساعد على ذلك عدد من العوامل منها:

١ – التأثر بألفاظ القرآن الكريم.

٢ – شيوع العشق فى البوادى العربية.

٣ – انتشار الغناء فى الحواضر والمدن.

استمع إلى هذه الألفاظ السهلة فى قول جرير:

بـان الخليـط ولـو طوعـت ما بانا وقطعوا مـن حبـال الوصـل أقرانـا
يـا أم عـمـرو جـزاك الله صـالحة ردى عـلـى فـؤادى كـالـذى كـان
لقد كتمت الهوى حتـى تهيمنـى لا أستطيـع لهـذا الحـب كتمـانـا
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت بأسباب دنياك من أسباب دنيـانا

لكن بقى جماعة من الشعراء متمسكين بغرابة الألفاظ واستجلاب الشاذ منها ومن هؤلاء ذو الرمة، ورؤبة بن العجاج.

يقول هذا الأخير فى أرجوزة له واصفا إحدى المغازات[١]:

وقـاتـم الأعـماق خاوى المخترق مـشـتـبـه الأعـلام لـمـاع الخفق
يكل وفد الريح من حيث انخرق شـأز بمـن عـوه جـدب المنطـلـق
نـاء مـن التصبيـح نـائى المغتبق تـبـدو لـنـا أعـلامـه بعـد الغرق
فى قـطـع الآل وهـبـوات الـدقـق خـارجة أعنـاقهـا من معتنـق[٢]

---

(١) ديوانه ص١٠٤.

(٢) القاتم: الأسود، الأعماق: الأطراف، مخترق الرياح: مهبها، الخفق: السراب، انخرق: هب،شأز: غليظ، نائى المعتنق: ليس فيه ماء يورده بالعشية، الآل: السراب، الدقق: التراب الدقيق.

الأساليب:

كانت أساليب الأمويين رصينة محكمة النسيج، قوية العبارة، فيها تأثر بالقرآن الكريم، ومصادر الثقافة الإسلامية، كما اتسمت بالبعد عن المحسنات البديعية المتكلفة.

المعانى:

كانت معانى الشعراء فى ذلك العصر فيها تكرار لمعانى السابقين إلا أن شعر النقائض والشعر السياسى قد عرف توليد المعانى وابتكارها وقد خلت معانيهم من المبالغات، واتسمت بقرب التناول وترتيب الأفكار.

وقد ظهر طابع القص والحوار فى بعض شعر الغزل ولا سيما عند عمر بن أبى ربيعة، يقول فى إحدى قصائده التى تصور زيارته لإحدى صاحباته[1]:

فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقامت إليها حرتان عليهما ... كساءان من خز دمعتى وأخضر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائرا والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكرا ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون ما كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

■■■

(١) ديوانه ص٣.

من أعلام الشعراء
فى العصر الأموى

المقنع الكندى

سمى هذا الشاعر بالمقنع لأنه أحد ثلاثة كانوا لا يرون مواسم العرب إلا مقنعين يسترون وجوههم حذرا على أنفسهم من النساء، وخوفا من العين، وهم أبو زيد الطائى والمقنع الكندى ووضاح اليمن، ويقول ياقوت الحموى: «كان حسن الصورة فكان إذا دخل مكة دخلها متنكرا لجماله».

ويقول ابن قتيبة: «كان من أجمل الناس وجها وأمدهم قامة، وكان إذا سفر عن وجهه يقع (أى أصيب بالعين) فكان يتقنع دهره فسمى بالمقنع».

هو محمد بن ظفر بن عمير بن أبى شمر ينتمى نسبه إلى يعرب بن قحطان وهو من بيت شرف وسؤدد فقد كان جده سيد كندة.

وقد كان لانتساب الشاعر إلى كندة ونشوئه فى أسرة لها مقام الرياسة، وفى بيت عرف المجد والسؤدد، كان لذلك أثره فى تربيته وسلوكه وطباعه وخلقه، ولعل صفة الكرم التى عرف بها وسماحة اليد التى لازمته طوال حياته، واستجابته لكل سائل، وإتلافه ما خلفه له أبواه من مال نتيجة لهذه النشأة.

والمقنع كما تجمع مصادر ترجمته شاعر مقل، وكما تؤكد هذه الحقيقة مصادر الأدب التى ترجمت له أو استشهدت بشعره، وقد انحصرت أغراضه فى بعض قصائده المشهورة أو بعض إحساساته بالشيب والكبر، ومعالجته لحالات نفسية كان يعانيها ويشعر بضغطها عليه، وهو يعانى تجربة الحياة.

كانت ولادة المقنع سنة خمس وستين ووفاته نحو سنة مائة وثمان وعشرين[1].

نماذج من شعره:

يقول متحدثا عن نفسه[2]:

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما ... ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
ألم ير قومى كيف أوسر مرة ... وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادنى الإقتار منهم تقربا ... ولا زادنى فضل الغنى منهم بعدا
أسد به ما قد أحلوا وضيعوا ... ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

(١) شعراء أمويون ص١٩٣، وما بعدها.

(٢) الحماسة البصرية ج٢ ص٣٠، ٣١.

وفى جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحما مدفقة ثردا
وفى فرس نهد عتيق جعلته حجابا لبيتى ثم أخدمته عبدا
وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جدا
أراهم إلى نصرى بطاء وإن هم دعونى إلى نصر أتيتهم شدا
فإن يأكلوا لحمى وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا عنى حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيىّ هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بى زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
وإن هبطوا غورا لأمر يسوءنى طلعت لهم ما يسرهم نجدا
فإن قدحوا لى نار زند يشيننى قدحت لهم فى نار مكرمة زندا
وإن بادهونى بالعداوة لم أكن أبادهم إلا بما ينعت الرشدا
وإن قطعوا منى الأواصر صلة وصلت لهم منى المحبة والودا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس كريم القوم من يحمل الحقدا
فذلك دأبى فى الحياة ودأبهم سجيس الليالى أو يزيروننى اللحدا
لهم جل مالى إن تتابع لى غنى وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا
وإنى لعبد الضيف مادام نازلا وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا
على أن قومى ما ترى عين ناظر كشيبهم شيبا ولا مردهم ردا
بفضل وأحلام وجود وسؤدد وقومى ربيع فى الزمان إذا شدا

ومن قوله المشهور[1]:

نزل المشيب فأين تذهب بعده؟ وقد ارعويت وحان منك رحيل
كان الشباب خفيفة أيامه والشيب محمله عليك ثقيل
ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

أبو صخر الهذلى

من الشعراء الذين ترددت قصائدهم فى المحافل، وامتدت شهرتهم إلى كل مكان، وبقيت أبياتهم موضع استشهاد طيلة قرون، أبو صخر الهذلى عبد الله بن سلم السهمى

(١) حماسة أبى تمام ص ١٧٣٤.

أحد بنى مرمض، وتجمع المصادر على أن هذا النسب القصير على غير المعتاد فى ذكر الأنساب، هو ما عثر عليه بالنسبة لهذا الشاعر الذى ظلت أنفاسه وأشواقه تعبر الزمن بلا حواجز، وتدخل القلوب بلا استئذان.

وأبو صخر الهذلى شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية، وكان مواليا لبنى مروان، متعصبا لهم، وله فى عبد الملك بن مروان مدائح وفى أخيه عبد العزيز، وعبد العزيز بن خالد بن أسيد مدائح أخرى، وقد جر عليه حبه لبنى أمية السجن عندما منعه ابن الزبير عطاءه لعلمه بموالاته للأمويين، فقال: علام تمنعنى حقا لى وأنا مسلم ما أحدثت فى الإسلام حدثا، ولا أخرجت من طاعة يدا؟! ! قال: عليك بنى أمية فاطلب عندهم عطاءك، قال: إذا أجدهم سباط الفهم، سمحة أنفسهم، بذلاء لأموالهم، وهابين لمجنديهم، كريمة أعرافهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم قريبا من رسول الله ﷺ. نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نسبوا بأذناب ولا وشائط[1] ولا أتباع، ولا هم فى قريش كفقعة القاع، لهم السؤدد فى الجاهلية، والملك فى الإسلام، لا كمن لا يعد فى عيرها ولا نفيرها، ولا حكم آبائهم فى نقيرها ولا قطميرها، ليس فى أحلافها المطيبون، ولا من ساداتها المطعمون، ولا من جودائها الوهابون، ولا من هاشمييها المنتخبون، ولا عبد شمسها المسودون، وكيف تقابل الرؤوس بالأذناب؟ وأين النصل من الجفن؟ والسنان من الزج؟ والزنابى من القدامى؟ وكيف يفضل الشجع على الجواد؟ والسوقة على الملك؟ والمجيع نجلا على المطعم فضلا؟

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه ثم سجنه لمدة عام.

ولما ولى عبد الملك بن مروان وحج لقيه أبو صخر، فلما رآه عبد الملك قربه وأدناه وقال له: إنه لم يخف على خبرك ولا ضاع لك عندى هواك ولا موالاتك.

كان أبو صخر شاعرًا تميز بطابع شعرى معروف، والتزم بتراكيب فنية وبناء شعرى متميز وأنجز بعض المهمات الشعرية التى تركت على وجد تراكيبها سمات الذوق النقى، والطهر العفيف، والسلاسة الفنية الصادقة[2].

نماذج من شعره:

عفت ذات عرق عصلها فرئامها ... فضحياؤها وحشى قد أجلى سوامها
إلى عقد البيضاء من جمل أقفرت ... وكان بها مصطافها ومقامها

---

(١) وشائط: اختلاط فى نسبهم.

(٢) راجع شعراء أمويون ص١١، وما بعدها.

سوى أن مرسى خيمة خف أهلها ... بابهر محلال وهيهات عامها
إذا اعتجلت فيها الرياح فأدلجت ... عيشا جرى فى جانبيها قمامها
فإن معاجى للخيام وموقفى ... بوانية البندين بال ثمامها
لجهل ولكنى أسلى زمانه ... يضعف أسرار الفؤاد سقامها
وأشفى حوى باليأس منى قد ابترى ... عظامى كما يبرى الرديع هيامها
ولله شعبا طيبة شعث بها ... بما قد ترانى دارها ولمامها
من القاصرات الخط وفى السير كاعب ... سراج الدجى يروى الظمآن نسامها
صراحية لو تذرج الذر أندبت ... على جلدها خود عميم قوامها
كأن على أنيابها من رضابها ... سبيئا نفى الصفراء عنها أيامها

وقال فى الغزل:

عذبٌ مُقَبّلها خدل مخلخلها ... كالدعص أسفلها مخصورة القدم
سود ذوائبها بيض ترائبها ... محض ضرائبها صنعت على الكرم
شنب مثاغرها يرضى معاشرها ... لذ مناشرها تشفى من السقم
غيل مقيدها حال مقلدها ... بض مجردها لفاء فى عمم
درم مرافقها سهل خلائفها ... يروى معانقها من بارد النسم
طفل أناملها سمح شمائلها ... ذو العلم جاهلها ليست من القزم

■■■

النثر الفنى

عوامل ازدهار الخطابة فى عصر بنى أمية

ازدهرت الخطابة فى هذا العصر ازدهارا عظيما، حيث استجد فى العصر الأموى من العوامل والمؤثرات التى أدت إلى نهضة هذا اللون من النثر الفنى.

ومن أهم هذه العوامل:

- وجود الأحزاب السياسية التى احتاجت إلى الخطابة لنشر آرائها وعرض حججها، وردع خصومها.
- كثرة الفتوح الإسلامية التى تطلبت خطباء لسنا يقومون بأمر الدعوة إلى دين الله وبث تعاليمه فى البلاد المفتوحة.
- اندلاع كثير من الثورات التى تناوئ الحكم الأموى وتعاديه.
- بقاء الفطرة العربية السليمة وقرب عهد الناس بالدين الإسلامى الحنيف. كل هذه العوامل وغيرها كانت سببا فى قوة الخطابة الأموية وازدهارها، أما الموضوعات التى تناولها الخطباء فأهمها:
- تهنئة الخلفاء والولاة أو مبايعتهم.
- الدعوة إلى اعتناق مبادئ الأحزاب السياسية.
- الانتصار للعصبيات القبلية.
- الدعوة للخروج على الحزب الحاكم، وذلك لدى خطباء الأحزاب.
- وإلى جانب الموضوعات التقليدية كخطب الوعظ والنكاح والمناسبات الاجتماعية.

سمات الخطابة الأموية:

- البدء بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة والتسليم على نبيه ﷺ.
- العناية بالألفاظ وبعدها عن المبتذل والغريب.
- رصانة الأساليب وقوتها وإحكامها.
- التأثر بالقرآن الكريم والسنة الشريفة.
- تقسيم الخطبة إلى فقرات، والتزام السجع بعض الأحيان.

نموذج للخطابة الأموية:

لما تولى زياد البصرة جمع أهلها وخطبهم قائلا:

أمــا بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله إلى النار ما فيه سـفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول.

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسـدت مسـامعه الشـهوات، واختـار الفانية على الباقيـة، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسـلام الحدث الذى لم تسـبقوا إليه؛ من تركك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله.

وهذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسـلوبة فى النهار المبصر، والعدد غير القليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل، أو غارة النهار؟

قربتـم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العـذر، وتغضون على المختلس النكر، أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه؟! صنع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا.

إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: اللين فى غير ضعف، وشـدة فى غير عنف، وإنى لأقسم بالله لأخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصى، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد، فقد هلك سعيد أو تستقيم قناتكم.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبته، فمن غرق قوما غرقناه، ومن أحـرق قومـا أحرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا، فكفوا عنى أيديكم وألسـنتكم أكفف عنكم يدى ولسـانى، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

■ ■ ■

الفن الجديد فى العصر الأموى

هو الشعر السياسى ونعنى به ذلك الذى يتعلق بنظام الحكم:

أولا – وتنهض به الأحزاب التى ترى فى الحكم نظامًا خاصًا وهذا الفن جديد حقا فى الإسلام، وفى العصر الأموى خاصة إذا نظرنا إلى العصر الجاهلى رأينا شعرًا يصدر الاختلاف فى الآراء ووجدنا نقائض، ولكنها كانت تدور حول مسائل اجتماعية شخصية كتفضيل قبيلة أو شخص على شخص آخر فلما جاء الإسلام وتحققت النهضة حدثت المناقضة أول الأمر بين دين أو نظام جديد للعرب وللبشر، ونظام آخر وثنى أو استبدادى قبلى قديم، ثم بين الإسلام يمثله العرب وغيره يمثله العجم، ولكن ذلك الفن كان ناشئًا ومبهمًا وكان من بين المسلمين وغيرهم فلم يكن واضحًا ولا محدود المعالم.

ولكننا فى العصر الأموى أمام نظام إسلامى داخلى فيه هذه الأحزاب ذات الآراء المختلفة فى أصول الحكم، ونظام الدولة وهى أحزاب تتحارب باللسان وبالسنان ولكل حزب شعراؤه، وخطباؤه، وزعماؤه، ومجادلوه وقصاصه، وذلك أمر واضح نشأ – فى أقرب درجاته منذ صفين، وتكوين أحزاب الخوارج والشيعة والجماعة ثم الزبيريين والمهالبة وكان من ذلك أن نشأ جيل جديد تأدب بأدب الإسلام، وجدت حوادث سياسية فرقت المسلمين شيعًا لكل شيعة ألسنتها.

هذا الشعر كان جديدًا لأنه صورة حزبية جديدة، ولأن معانيه جديدة تقوم على الجدل الدينى والسياسى، ولأن أسلوبه خصب قوى جزل، ولأن الشعراء تفرقوا فيه فمنهم الأمويون أمثال «أبى العباس الأعمى، وغيره» ومنهم العلويون أمثال «النعمان بن بشير الأنصارى وغيره» ومنهم الخوارج أمثال «قطرى بن الفجاءة» وغيره، ومنهم الزبيريون أمثال «عبيد الله بن قيس الرقيات وغيره».

ويلاحظ أن مما أرّث الشعر السياسى حرص الأمويين على شعرائهم ومكافأتهم لهم، وبثهم روح المسابقة بينهم، وإغراء بعض الشعراء ببعض، وتبع ذلك اشتغال المتعلمين بالمفاضلة بين الشعراء وانقسامهم فى ذلك إلى أحزاب متأثرين بعوامل شتى مما هو معروف فى تاريخ النقد الأدبى.

الفن الذى مات أو كاد

هو فن الإلحاد، وهجاء الإسلام، وقد كان الإلحاد فنًا عرفته الجاهلية عند «طرفة بن العبد» فى معلقته كما هو معروف مشــهور، كذلك كان هجاء الإســلام معروفا عند شعراء مكة بعد هجرة الرسول وقيام مدرسة المدينة تناضل عن الإسلام وترد على هجاء القرشيين فى مكة، وكان هذا الهجاء موجهًا فى الغالب إلى المسلمين، ورثاء لقتلى المشركين، ولكنه لما استقر الإسلام ودخل فيه العرب لم يعد أحد يهاجم ولم يجرؤ أحد على الدعوة الإلحادية – دع مســألة الردة فقد كانت نعرة جاهلية لا خطر لها – فمات هذا الفن الشــعرى، ولم يستطع أحد أن يتخذه موضوعا شعريا بحال – ولا تغرنا أبيات يقولها بعض الملحدين الخارجين فى الخمر والغزل، فذلك أمر لا ينفى هذه القاعدة لأنه خروج على الأصل المقرر.

■ ■ ■

الفنون المتجددة

وهــى هــذه الفنون القديمة التى عرفها الشــعر منذ العصر الجاهلى، ولكنها اكتســبت جدة فى هذه الفترة الأموية وصاحبها تطور نشــأ عن عوامل جديدة، فالفخر، والحماسة، والمــدح، والهجاء، والغزل، والرثاء، والعصبية، والخمريات كل ذلك كانت موجودة قبل الإسلام ولكن ظهور الإسلام ثم ما تبع ذلك من حوادث وقيام الأمويين وما لابس مدتهم من مقومات جديدة - أحالت هذه الفنون وأكسبت كلا منها خواص جديدة نلاحظ شيئا فيها فى إجمال إلى أن نفصلها فيما بعد.

الغزل:

الغزل الجاهلى كان وصفا حســيا يتناول جمال المرأة الجســمى غالبًا، ويذكر أجزاءه كما يذكر أجزاء الفرس والناقة والحيوان الوحشى، وكان يتخذ موضوعا لديباجة القصيدة، وتمهيدا لأغراض المدح، والذم، والوصف ونحوها، وقلما انفرد به أحد من فحول الشــعراء وإن اختــص به جماعة من المغمورين «كالمرقش الأكبر» وعبد الله بن العجلان، وعروة بن حزام العذرى، ومســافر بن أبى عمر القرشــى، ومالك بن الصماصمة - وإذا صح ما ينسب إلى «امرئ القيس» فإنه يكون قد اخترع القصص الغزلى كما جرؤ على الإفحاش فى شعره حتى قيل إنه تعهر. وفى الإســلام اســتحال هذا الفن بمقتضيات هذا العصر الجديد فوجد فيه - وبخاصة عند البدو - الغزل الصوفى أو النفسى الذى يقصد إلى جمال النفس وهجرة المرأة وصدها والشكوى منها، كما كثرت القصص عند شعراء المدن ولا سيما «عمر بن أبى ربيعة» هذا الشــىء ثم اختص جماعة من نابهى الشــعراء وكونوا مدارس شتى كالعذريين، والواقعيين وذلك غير الغزل الصناعى الذى عرف به بعض الشــعراء، وغير اتخاذه ديباجة القصيدة كما كان الشــأن فى العصر الجاهلى، وقد ارتقى أســلوبه إلى درجة عظيمة لتلك العوامل التى ذكرناها كثيرا ولأسباب خاصة تذكر فيما بعد.

المدح:

وقد كان المديح فى الجاهلية يضفى على ذوى الفضائل البدوية مثل «العقل، والحزم، والكــرم، والنجــدة، والمروءة» كمــا كان المديح فى الجاهلية ينتظم الشــمائل الآتية وهى

«الفَراهَةُ» وبسـطة الجسم والسمّاحة «وكثرت هذه الألوان من الشعر حتى صارت وسيلة من وسائل التكسب فابتذل ذلك وتحاماه بعض الأشراف، وقد عرف بالمدح من الشعراء «زهير، والنابغة، والأعشى وحسان بن ثابت، والحطيئة».

ولما جاء الإسلام، وخفقت راياته على الجزيرة العربية، وسطعت شمسه، وكثر أتباعه توجه المديح إلى الرسـول ﷺ وآله وأصحابه وخلفائه، وإلى مدح الدين نفسـه، ثم استمر زمـن بنى أمية فتوجه المديح إلـى الخلفاء والأمراء والولاة رغبة، أو رهبة، واتخذ الخلفاء ورؤسـاء الأحزاب جماعة الشـعراء صُحُفًا لهم ينشرون آراءهم، ويدفعون عنها، وقد حدث تغيـر فى المعانى فتناولت الدين وفضائله، والنظام السياسـى ومآثره، والخلق الإسـلامى الفاضل، ورعاية مصالح المسلمين وحسن التدبير الحربى، والإخلاص للخلافة أو للحزب، أو للدولة، وما إلى ذلك من الأغراض والمعانى.

الهجاء:

الهجـاء غرض من الأغـراض المعروفة فى كل عصر من عصور الأدب العربى، ومعناه: ذكـر المثالـب والمعايـب، ونفى الفضائل عن المهجو، ويكون ذلك فى أسـلوب سـاخر مع التهكم والاسـتهزاء الذى يدعو إلى السـخرية والضحك، وهو خلاف السّـب والشتّم، والإفحاش فى القول مثل الذى عرف به الشـاعر «جرير، والفرزدق، وبشـار» وغيرهم كُثْر من الشـعراء - وكان هذا الفن فى الجاهلية أقرب إلى النّهج السـوّى المعقول حين تناوله «زهير، والنابغة، والأعشـى، والحطيئة، وطرفة بن العبد البكرى» وغيرهم ممن تناولوا به الفضائل الرئيسـية يشكون فيها، أو ينفونها، والرذائل الرئيسية يثبتونها. ثم جاء الإسلام فسار على هذا المنهج واستحال دينيًا مثل الذى نراه لدى الشاعر «عبد الله بن رواحة» بَيْدَ أنه اسـتحال وتحول سبًّا فاحشًا، وإقذاعًا مرًا تناول الأعراض والعورات وذلك حين اعتمد عليه فحول الشعراء - ونقائض «جرير، والفرزدق» بوجه خاص مثل واضح لما ذكرناه آنفًا.

الفخر والحماسة:

الفخر والحماسة فنّان متصلان دائمًا، وإن افترقا، وذلك بأن الفخر يتحدث عن الماضى وأمجاده، أما الحماسـة عن المسـتقبل فهو يبث شـعور القوة ويذيعه، ويفسره بين الناس والمجتمعات، فيقوم الفخر بتعداد فضائل الإنسان، وآله، وعشيرته، وقبيلته، وعائلته من

كرم، وشجاعة، ونجدة، وكثرة عدد وأصالة عُنْصر، فهو دفتر تاريخى يسجل ما حدث فى الماضى الغابر مع الاعتزاز به، والفخر. ولكن الحماسة هى «فن القوة» الذى يعنى بإثارة الشعر الحربى، أو الثورى، أو الثبات فى بعض المواقف الخطيرة، فاتجاهه يكون للآتى ولكنهما مع ذلك يلتقيان، ويعيشان معًا فى النص الواحد، إذ يتخذ الشاعر من الماضى وسيلة للمستقبل يذكره على أنه تهديد للعدو، وإرهاب له وفى الوقت نفسه شحذ لهمم الشبان، وإيقاظ لمشاعره وعزائمه، ودفع له على اقتحام الصعاب وإضافة مآثر جديدة إلى المآثر الماضية لتزداد قوة ومتانة، فهما معًا «فن القوة الأدبية» وقد عاشا فى العصر الجاهلى على هذه المعانى وهى «الشجاعة، والنجدة، والكرم، والمروءة، والتلصص لدى الصعاليك» وقتل المماليك والانتصار فى الأيام المشهورة، والإكرام وقت «المَحْل» والقحط والجدب والأزمات الاقتصادية بلغة العصر. وذلك مثل ما فعل «عنترة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد البكرى، وحسان بن ثابت» واستحالت الحماسة ومنها «الفخر» دينية فى أيام «البعثة النبوية الشريفة» على صاحبها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام، والفتوح الأولى، فكانت تقوم إعلاء لكِلمة الحق، والترغيب فى نيل الشهادة الدينية حتى كان «العصر الأموى» عاد الفخر الجاهلى وذلك لدى الشاعر «جرير بن الخطفى والفرزدق، والأخطل» ويفى دينيًا قويًا لَدَى الخوارج خاصة، وغزليًا لدى بعض الغزليين من أمثال الشاعر «عمر بن أبى ربيعة» ولعل «عمر بن أبى ربيعة» أخذه من الشاعر «امرىء القيس بن حجر الكندى» فكلا الشاعرين يفخر بحب النساء له وباقتحام الصعاب فى سبيلهن، وفى غيرة الرجال منه، وهكذا.

الرثاء:

الرثاء فن طبعى لأن الموت حق وسنة دائمة وهو مما لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عَنْزَان، وكان فى الجاهلية يقوم على ذكر مناقب الميت، مع إظهار التفجع والحزن والتلهف عليه، واستعظام المصيبة فيه – ومن عادة الجاهلية فى الرثاء كما يقول صاحب كتاب العمدة «ابن رشيق القيراونى» وضرب الأمثال بفناء الملوك العظام، والممالك الكثيرة، والأمم القوية والوعول الممتنعة فى قلل الجبال، والأسود الخادرة فى الغياض، والوحوش المنصرفة بين القفار والنسور، والعقبان، والحيات لبأسها وطول عمرها وهذا طبعى، فهذه هى المعانى، والصور البدوية الصحراوية التى يراها الأعراب، وشعراؤهم، وتقع تحت سمعهم وبصرهم آناء الليل وأطراف النهار، فلما جاء الإسلام، وسطعت شمسه، وخفقت راياته، ورفرفت فوق سماء الجزيرة العربية كانت الأسوة برسول الله ﷺ، وخلفائه والأنبياء

السابقين، وأنه شىء مكتوب على الناس تعقبه حياة أرقى، وتلك المعانى بقيت بجانب المعانى القديمة زمن العصر الإسلامى، وإلى الآن وإن لم يأخذ «فن الرثاء» شهرة قوية فى هذه الحقبة من الزمن فهو على كل حال فن طبعى خالد.

الوصف:

وهو شرح حال الشىء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع لإحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به وهذا هو الأصل الذى جرى عليه أكثر العرب قديمًا وقد يبالغ فيه لتهويل أمره أو تلميحه أو تشويهه أو نحو ذلك فيكون منه المقبول والممقوت. ولا سبيل إلى حصر ضروب الوصف عند العرب فإنهم وصفوا كل ما رأوه أو عانوه وخالط نفوسهم، فوصفوا من الحيوان الإبل وافتنوا فى ذلك بما لم تفتهم فيه أمة فى وصف نفيس لديها. ومن أبلغ وُصَّاف الإبل «طرفة»، ووصفوا الخيل فى ضروب خلقها وأحوال سيرها ومن أشهرهم فى ذلك «امرؤ القيس» وأبو داود الإيادى، ووصفوا أيضًا كواسر السباع، وأوابد الوحوش، وجوارح الطيور وصوادحها، وخشاش الأرض وهوامها، ووصفوا من النبات ضروبه، وشياته، ومن السماء نجومها، وكواكبها، وسمائها، وبروقها وأنوارها، وأمطارها ومن الأرض سهولها، وجبالها، ومرابعها، ومصايفها وخاصة الديار والأطلال والدمن والرسوم وتعفية الرياح والأمطار لآثارها وشبهوها أحيانًا برقم الكتب، وصحائف الرهبان، وبالوشم على ظاهر السيد، وبالثوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك – ووصفوا جمال الإنسان، وأخلاقه وطباعه وأحواله فى الظعن والإقامة، وأفعاله فى قتاله ونزاله ودفاعه بمختلف سلوكه.

ونلاحظ من ذلك أن الوصف هو الباب الرئيسى الذى يصح أن يتناول جميع الأبواب الأخرى، وهذا الفن الذى قام فى معانيه وعناصره وموضوعاته على الحياة البادية تجده يلم بأخلاق وأعمال إسلامية زمن البعثة من حرب وسلم وفتوح ومغاز حتى إذا كان العصر الأموى نجده يصف الشعوب الأخرى والحروب الخارجية والمصارع السياسية وأدوات الحرب ومظاهر الترف النسبى، وأحوال العمران ومظاهر المدنية، وهذا أمر طبعى مادام الوصف صورة للحياة حوله.

العصبية:

لما كانت العصبية أساس الحياة الاجتماعية فى الجاهلية كانت فنون الحرب جميعًا من (مدح، وهجاء، خاصة، وفخر وحماسة، ورثاء) متأثرة بهذه الروح القديمة، ومتجهة

إليها، وقد حاول الدين كسـر شـر العصبية الجاهلية ولا سـيما إلى آخـر عهد «عمر بن الخطاب» ولكن العصبية عادت بسـرعة أقوى منها فى الجاهلية، واتسعت آفاقها فصارت فردية وأسـرية وقبلية وحزبية، وعنصرية وسياسـية، وخب الشعراء فيها ووضعوا، وكثر الشعر الذى يتصل بها، وليس الشعراء الأمويون إلا شعراء عصبيات مهما يكن نوعها حتى شعراء الغزل لم ينجوا من العصبيات السياسية أو المذهبية فى الفن والجنس، وهكذا كانت العصبية شرا مستطيرا على الدولة فذهبت بها آخر الأمر.

الخمريات:

وكان هـذا البـاب معروفًا فى الجاهلية قال فيه «امرؤ القيس، والأعشـى، وحسـان، وعدى بن زيد العبادى، وعمرو بن كلثوم، وعنترة» وغيرهم، ولعل «الأعشـى» أكثرهم فيه لكثـرة اتصالـه بالحيرة وبأهلها وقد ترك هذا الفن أول الإسـلام لتحريـم الخمر ولكن فى عصر بنى أمية كان الشـراب شـائعًا يشربه المتبدون من فحول الشـعراء، ويشربه بعض الخلفاء والأمراء ويشـربه جماعة الغزليين والمغنين وربما لم يكن يرى فيه بعضهم إثمًا ولا ذنبًا – ولكن المجاهرة بالخمريات فى الشـعر، والدعوة إليها لم تعرف إلا عند «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» فله فى ذلك مقطوعات رقيقة مشهورة، ولعله هو الذى فتح الباب فى ذلك لطبقة «أبى نواس» من شعراء العصر العباسى، والكلام فى الخمر يتناول وصف لونها وآثارها وآنيتها وساقيها ومجالها ونحو ذلك ولكنها لم تصر فنًا قويًا إلا فى العصر العباسى إلا ما كان من شأن «الأخطل» وجميع شعراء النصرانية ذلك دأبهم دائما.

٢ - من الناحية اللفظية:

«أسلوبه»

وأهم ما يعنينا هنا تلك الناحية العامة أى الأسلوب فأى شىء طرأ يقوم على شيئين الفن الذى يعالجه هذا الأسلوب ثم شخصية الأديب الذى ينشىء هذا الأسلوب. وإذا أخذنا بهذا القانون بالنسبة لأسلوب الشعر الأموى استطعنا أن نظفر منه بأساليب أربعة:

١ – محافظ على القديم.
٢ – رقيق جميل.
٣ – قوى جديد.
٤ – ضعيف حزين.

١ - فحول الشعراء:

هناك فحول الشعراء منهم – «الأخطل، والفرزدق، وجرير، والراعى، وذو الرمة، والقطامى، والرجاز» وهؤلاء كانوا يحيون حياة بدوية جاهلية لم تشرب روحهم الإسلام على العموم وكثيرًا ما احتفظوا بتقاليد الجاهلية ولا سيما «الفرزدق» وتبرموا بشعائر الإسلام، فشربوا النبيذ، وأنكروا الزكاة، واحتموا بالقبور أو حموا بها، ونحروا الإبل، وأحيوا العصبيات القبلية، وأخذوا آدابهم عن البدو فى الصحراء، وكانت صلاتهم بالخلفاء على أساس النفع والانتفاع، وأعادوا بالمزيد والكناسة عادات المفاخرة بالشعر، وتكوين الحلقات القبلية والأدبية والتجارية كما كان الشأن فى «عكاظ ومجنة، وذى المجاز» مثل هذه الحياة من شأنها أن تجعل طبائع الشعراء جافة غليظة، وأذواقهم بدوية عنيفة ولغتهم غريبة ضخمة، وأخيلتهم من جنس الأخيلة البدوية الجاهلية فكان شعرهم جاهليًا فى أغلبه أعادوا به الأدب البدوى بأيامه ومفاخره، وتقاليده، وفضائله بل أربوا على الجاهلية فى العصبية وفى الإقذاع فى الهجاء وبخاصة إذا لاحظنا استغلال السياسة لهاتين العصبية والفحش فهذا شىء آخر هو أن الفنون التى عالجها هؤلاء الشعراء كانت إما قديمة وإما تقليدًا للقديم، ومجاراة لحالته فكانت مدحًا وهجاءً، وفخرا وحماسة، وسياسة ونحو ذلك وهذه كانت على الأصول نفسها التى قامت عليها هذه الفنون فى العصر الجاهلى.

فكان الأسلوب غريبًا، متخم الألفاظ، بدوى الخيال، طويل البحور، ولا سيما هؤلاء الرجّاز الذين اعتزوا بفنهم وأدخلوا فيه الفنون الشعرية العامة بعد ما كان وقفًا على بعض الأبواب – معنى ذلك أن هناك طبقة الفحول الذين عاشوا فى ظل الإسلام عيشة جاهلية اجتماعية وأدبية تامة.

٢ - شعراء الغزل:

وهناك الغزليون الذين عاشوا فى «الحجاز» مدنه وبواديه، وهؤلاء قد توافرت لهم عوامل جعلت أسلوبهم الشعرى رقيقًا جزلاً سواء منهم المدنيون فى «مكة والمدينة والطائف» – أو البادون من ذلك، هذا الفن الغزلى الذى عكفوا عليه هو فن رقيق لأنه صورة لشعور الحب والحديث عن جمال المرأة المادى والروحى والشكوى منها وإليها، وقص حوادث معها وذلك يستلزم الرقة.

ومن ذلك فن الغناء الذى لازم الشعراء وكان الشعر مادته، وهذا دعا إلى تقصير البحور، وتهذيب الأسـلوب وحسـن انسـجامه ليتلاءم مع الأدوار الغنائية، ومن ذلك هذه الحياة المترفة المثرية، التى توافرت «للحجازيين» فجعلت ذوقهم رقيقًا مهذبًا وشـعرهم كذلك، ثم هذه القيان الروميات والفارسـيات اللاتى أشعن جوًا لطيفًا، واستلزمن جوًا رقيقًا جميلاً حولهن، ثم هذه الوراثة القرشية المهذبة الرقيقة المترفة منذ الجاهلية والتى كانت تؤثر فى لغة قريش تهذيبًا وتصفية مما جعل شعرهم حتى الجاهلى وما عاصر البعثة سهلاً لينًا رقيقا.

لذلـك كله كان الغزليون أهل ظرف ورقة وكان شـعرهم رقيقًا جـزلاً وكان جديدًا حقًا فـى قصصه وعفته، وقصر بحوره أحيانًا، وإلفَه للنفـوس حتى الورعة التقية، وكان «عبد الله ابن عباس» يحفظه ولا يتحرج من روايته، وفن الغزل الأموى مشهور معروف مختلف الشـخصيات والمذاهب «فالمجنون، وجميل، وعمر، وكثير، ونصيب، والأحوص، وقيس ابن زريح، وعبيد الله بن قيس الرقيات» كلهم أصحاب أسلوب جزل رقيق.

٣ - شعر الخوارج:

وهناك شـعراء الخوارج – الطرمّاح بن حكيم، وعمران بن حطان، وإسـماعيل بن يسار – وهؤلاء قد كانوا مخلصين لعقيدتهم الدينية والسياسية شديدى الإيمان، ورعين، صادقين فى شـعورهم، شـجعانًا فى نزالهم، يعبرون عما يجرى خلفهم وما يأملون فى أن يتحقق فكانت موضوعاتهم جديدة، وكانت شخصياتهم قوية مخلصة رقيقة، وكانت الحياة لديهم هينة لا قيمة لها، وكانوا يؤمنون بالديمقراطية ضد الأرستقراطية الأموية والهاشمية.

فكان أسـلوبهم الشعرى قويًا جزلاً رقيقًا ليس فيه عجرفة المحافظين، ولا تخنث «ابن أبى ربيعة» من الغزلين المحققين، وهم حزب الثورة الجامعة المتصوفة فكان أسلوبهم قويًا ثائرًا دينيًا لا يعرفون إلا الآداب الإسلامية ولا يخضعون إلا للمساواة التى هى طابع الإسلام والتى يختصرها هذا البيت وهو «لعمران بن حطان»:

فنحن بنو الإسـلام والله ربنـا   وأولى عباد الله بالله من شكر

٤ - شعر الشيعة:

هناك جماعة من الشّيعة مثل «الكميت بن زيد الأسدى»، وكثير عزّة، وأبى الأسود الدّؤلى وهؤلاء يمثلون فى آرائهم، وشعورهم هذا المجد الدينى والحق الضائع المرغوب، والهزيمة الماحقة، وصفق السـلطان، وقلة الأعوان، فكان شـعرهم شعرًا باكيًا حزينًا، وحَدَبًا وعطفًا

على المظلومين وشــفقة على البائسين، فكان أسلوب الشيعة ذكريات لأيام عزيزة خالية، وعزّ غابر، فكان أسلوبًا ضعيفًا خَافتًا، وكان أحيانًا تقريريًا يقيم الحجج والبراهين، ولكن ماذا تُجدى تلك فى وجه القوة القاهرة، والاســتبداد الحكومى؟ فالموضوع شــكوى وبكاء، وحُزْن، ودعاوى نظرية والشعراء أنفسهم لم يكونوا فى إخلاص الخوارج فكان شعرهم قليلاً كما كان ضعيف الأســلوب وســطًا بين القديم والجديد، بخاصة لدى الشاعر «الكميت بن زيد الأسدىّ». والمرجئة مثل الشّيعة تقريبًا لأن المرجئة جماعة ومسالمة، لأنها تكتفى من الدين بالإيمان يعنى التّصديق، ولا تعنى كثيرًا بالأعمال الظاهرة، ولا تتعرض لأحد بخير، ولا بشــرّ بل ترجىء ذلك إلى الآخرة وتدعه لله سبحانه وتعالى وهى ذات أمل عريض فى ثواب الله، ومغفرته، فدأب هذه الجماعة «المسالمة والإرجاء» لا تسفك الدّم إلا أن يراد بنا سفك الدَّماء طريقًا واحدًا جدَدًا من يتق الله فى الدنيا فإن له أجر التقى إذا وفى الحساب غدا فكان أسلوبهم هادئًا يفترق عن الشيعة بخلوه من الحزن والبلاء وبالأمل، وليست فيه محافظة هو تقرير لا غير، بل هو خوف ومسالمة.

هذه الخواص التى ذكرناها لأســاليب الشــعر المختلفة باختلاف البيئات الشعرية هى خواص غالبية وقد تجد فيها مخالفة شــاذة، أو قليلة لا تعبر شــيئا من هذا الطّابع وهناك مع ذلك مظاهر لفظية أو أسلوبية عامة تشترك فيها هذه الأساليب جميعا.

تأثير الدين والقرآن فى ألفاظ الشعر:

لقد كان للدين والقرآن الكريم كبير الأثر فى تهذيب الألفاظ التى تناولت التراكيب والمفردات بصفة عامة فجاءت خلْوًا من غرابة الجاهلية وعنجهيتها لدى الفحول من الشعراء وحتى هؤلاء كنا نرى فى شعرهم تهذيبًا واضحًا وذلك بتأثير الدين، والقرآن الكريم، والحضارة الجديدة بمظاهرها الحسنة، وعواملها المعنوية. أما الغزل فإن أمره ظاهر حيث إنك تجد ألفاظه رقيقة وعباراته مهذبة، وفصيحة جميلة الوزن والموسيقا صالحة للغناء، ومثله فى ذلك «النسيب» الذى يتصدر القصيد حتى عند الفحول من الشعراء مثل: «جرير» حيث إنك تحسّ بحلاوة اللفظ، وتشــعر بجمال العبارة اســتجابة لصدق الشعور، وتهذيب الأذواق وإذا قصدت إلى شــعراء السياســة وجدت أن قصدهم إلى المعانى، كما كان الاحتجاج يحملهم على تصفية العبارات حتى تكون شفافة واضحة ليس فيها تعمل ولا امتنان، فهى لغة الحديث مهذبة وموزونة والفحول من الشعراء فى عصر بنى أمية لم يسلموا من التهذيب وجزالة العبارات، وقوة الأداء. فهم ببداوتهم إســلاميون يقبســون من القرآن ما اســتطاعوا إلى ذلك ســبيلا.

خلو الشعر من الإسفاف والسخف:

وقد جاء شعرهم خلوًا من الإسفاف والسخف كالذى نجده لدى شعراء العصر العباسى – فلا نجد عند الإسلاميين ذلك السخف، وتلك الرذالة، أو الإسفاف الذى بدا واضحا لدى شعراء العباسيين كما أومأنا إلى ذلك آنفا، ولا سيما حين يريدون أن يحلو الشعر محل النثر، ويتحدثوا به كما يتحدثون بالكلام العادى إذ إن البداوة قريبة، وأسلوب القرآن قائم ومحترم كما أن الخلق نفسه قوى، وقويم، والآداب تحتل مكانة سامقة، وشامخة، وجليل القدر.

لذا التزم الأسلوب صفة الجزالة مع الرقة حينًا، ومع الفخامة والسهولة والوضوح أحيانًا.

تأثره بقصص القرآن وجدله:

ولقد تأثر أسلوبهم بقصص القرآن الكريم وجدله وتقريره، وكناياته، وتمثيله، وقصيدة «ثابت قطنة» فى الإرجاء واضح بها التأثر بالأسلوب القرآنى التقريرى، وهى آيات منظومة:

يَا هِندُ فاستمعى لى إن سيرتنا	**أن نعبد الله لن نشرك به أحدًا**
ترجى الأمور إذا كانت مشبّهة	**وتصدق القول فيمن جَارَ أو عَنِدا**
المسلمون على الإسلام كلهمُو	**والمشركون استووا فى دينهم قِدَدَا**
من يتق الله فى الدنيا فإن له	**أجر التقى إذا وفى الحساب غدا**
وما قضى الله من أمْرٍ فليس له	**رد وما يقض من شىء يكن رشدا**

ونجد لدى الشعراء الغزلين كثيرًا من هذا اللون، كما نجده لدى الخوارج. أما الفحول من الشعراء فكان تأثرهم بذلك واضحًا جليًا.

رواج الشعر وصيرورته صحيفة الحياة:

لقد كان الشعر فى عصر بنى أمية صحافة هذا العصر كما كان مَيزة الخلفاء، والأمراء، والولاة، كما وقد كان الشعر أيضًا لسان القبائل، ووسيلة المجد، فاحتل بذلك مكان الصحافة، والإذاعة، والخطابة العامة والبرلمانية، وكان أقوى مظهر أدبى فى عصر الدولة الأموية.

وقد توافرت للشعر عوامل شتى أكسبته هذه المكانة الممتازة، وحملته تلك التبعة الخطيرة منها هذه العصبيات القبلية التى اشتد أوارها لعوامل اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فصار الشعر كما كان فى الجاهلية يرفع القبائل، ويخفضها، حيث كان البيت من الشعر يرفع قبيلة خاملة إلى السمَّاك الأعزل ويضع قبيلة عظيمة لها شأنها إلى الحضيض الأسفل وذلك أمر معروف ومشهور حيث قال «جرير» فى بنى نمير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فقد كان الرجل من قبيلة «نمير» فى الطرق يتباهى ويتفاخر بقبيلته وأنه من «نمير» فيقول «نميرى أنا» فجعله «جرير» لقبا يعير به بدلا من أن يفاخر.

تشجيع زعماء الأحزاب

وقد كان الخلفاء يشجعون زعماء الأحزاب السياسية، تحقيقا لمآرب سياسية أو رهبة منهم لأنهم يعرفون قيمة الشعر وما له من مكانة لَدَى نفوس الناس، ولذلك استخدم الخلفاء الشّعر وسيلة سياسية تتدافع بها الأحزاب السياسية، فلم تكن هناك وسيلة أيسَر منه ولا أنجح لنيل الغرض المطلوب، وذلك لسهولة حفظه وبقائه فى الأذهان، وعَلَوقه بالجنان، وقد كان الخلفاء يغدقون على الشعراء رغبة منهم فى نشر مذهبهم السياسى أو مداراة للشعراء، وكسْبًا لألسنتهم الحادة أو طمعا فى جذب قبيلتهم والحصول على التأييد السياسى منها مما جعل الخلفاء يغضّون الطرف عن هفوات الشعراء، وجرائمهم ومخالفاتهم الدينية التى يستأهلون عليها إقامة الحدّ، كل ذلك كان فى سبيل السياسة.

احتفال الخلفاء بالشعّر ونقده:

قد كان الخلفاء، والأمراء، والولاة فى الأغلب الأعم أدباء يقرضون الشعر، أو يشجعونه وينقدونه، ويستمعون إليه، ويطربون له، وكانوا يستطربون الروّاة لمناقشتهم حوله، ويسألونهم عن نصوصه. فها هو ذا «الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان» كان شاعرًا خليعًا، ملحدًا، له فى فنّ «الغزل، والخمريات» قسْط وافر لدرجة أن ذلك لم يخط به شاعر فى عصره ويعدّ إمامًا للشعراء الإسلاميين فى هذا الفن، فقد فتح الباب أمام الشاعر «أبو نُواس» ولمدرسته قاطبة. أما أمراء البيت الأموى وأشياعهم، ومعارضوهم فإن كتب الأدب تعج بنوادرهم فى نقد الشعر ومدارسته.

تدوين العلوم المختلفة:

وفــى هذا العصــر حدثت نهضة علمية أدبية تُعَنْى بالتدويــن، والنقل، والاعتماد على الشــعر، كشــواهد لُغوية، وأدبية، فوق بقاء البادية مدرســة يؤمها الشّباب لدراسة اللغة، وارتفاع آفاق الأدب يتلقونها مشــافهة من الأعراب أو اســتقدامهم لأخذ اللغة، وشواهدها، هــذا فوق تمدن الأمّة واعتمادها على الشــعر كفن رفيع وراقٍ يلــزم الحياة الرّاقية إلى حدّ كبير، ولا يقول قائل إن الشعر كان رائجًا فى العصر الجاهلى، وفى عصر البعثة الإسلامية حيث إن رواجه زمن البعثة ســببه النهضة الجديدة. وكان رواجه فى الجاهلية أَضيْق أفقًا حيث كان للمفاخرة، والاستجداء وإنمّا ساد فى هذه الحقبة للمفاخرة والاستجداء والكدية وطلــب العطاء المّادى، والسياســة والعصبيات القبلية، والحزبيــة، والتدوين العلمى كان الشــغلة الأدبية اللازمة لحياة الدولة وتصوير مناحيها المتباينة، وتقويم شــئونها على ما يرسمه الخلفاء.

عناية القبائل بالشعّر والشعراء:

أما ما يتصل بعناية القبائل بالشــعّر، واســتحالة موقفها عما كان عليه فى الجاهلية، وذلك راجع إلى تغير مكانة هذه القبائل فى الإســلام من حيث اتصالها بالشــئون العامة، وبقــاء مكانتهــا أو تغيرهــا، فها هى ذى قبيلــة «قيس» وقد كانت لها مكانة ســامقة فى الجاهلية، وقد احتفظت بها فى الإســلام، وذلك لقوتها، وكثرتها ومشــاركتها فى الأمور السيّاسية، وتسجيل جهودها وأن ترفع صوتها عاليًا. لذا كان لها فى العصر الجاهلى سبعة وعشرون شاعرًا، فصار لها فى الإسلام ستة وعشرون شاعرًا، وقبيلة «تميم» قد كان لها فى الجاهلية اثنا عشر شاعرًا فصار لها فى الإسلام ثلاثة عشر شاعرًا، وأمّا قبيلة «قريش» فقد كانت قليلة الشعر ضعيفته فى الجاهلية وصارت فى الإسلام نابهة الشاعرية، فقد كان لها فى الجاهلية «عشــرة شعراء» فصار لها فى الإسلام «تســعة وعشرون شاعرًا» وكانت قبيلة «ربيعة» عكس قبيلة «قريش» فقد كان لها فى الجاهلية «عشرون شاعرًا» فصاروا فى الإسلام «أحد عشر شاعرًا» ويبدو لى أن هذا راجع إلى نزوح كثرتها إلى العراق مع هوان أمرها فى الإســلام ومثلها فى ذلك قبيلة «مُضَر» أو جلّ «مضر» فقد كان شعراؤهم فى الجاهلية «ستة عشر شاعرًا» فصاروا فى الإسلام «تسعة شعراء» وقبيلة «قحطان» كان شعراؤها فى الجاهلية

«اثنين وعشـــرين شاعرًا» فصاروا فى الإسلام «ستة عشر شاعرًا» وهذا أمْر طبيعى، فلم يكن «لليمن» مكانتها القديمة على العموم، ولا سيّما أن كثرتهم الإسلامية دخلت اللغة متعلمة، وكثرتهم الجاهلية مشــكوك فيها وهناك «إياد واليهود» لم يكن أحدهم شــعراء إسلاميين. وكان لإياد فى الجاهلية شاعر ولليهود أربعة.

الموالى وأثرهم وتأثيرهم

بقـــى الموالى هؤلاء دخلاء فى الشـــعر العربى فإذا صـــح ما يروى عن الجاهلية أنه كان للموالى شـــاعر جاهلى واحد هو «سحيم عبد بنى الحسحاس» الأسود النوبى اشتراه سادته الأسديون وأدرك النبى عليه السلام وكان «كعنترة العبسى» شاعرًا غزلاً، وكثر تغزله بنساء سادته فقتلوه.

ولكن هؤلاء الموالى دخلوا فى الإســـلام، أو أدخل عليهم الإســـلام فى بلادهم فأســـلموا وتعلموا العربية، وبزوا فيها كثيرًا من أهلها الأصليين. وكان تعلمهم اكتســـابًا وتدينًا وتأدبًا نقلوا إليها أو إلى الشـــعر جزءًا من ثقافتهم وروحهم فكانوا لونًا جديدًا فى الشـــعر العربى ظهر قويًا فى العصر العباسى[1].

ويهمنا هنا ما نلاحظه من كثرة عددهم وهذا أمر طبيعى مادام الإســـلام قد أزال لغتهم، وأحل محلها العربية فمعنى ذلك أن هؤلاء كانوا سيصيرون شعراء أعاجم فصاروا شعراء عربًا على أن هؤلاء الأعاجم قد تدخلوا فى الخصومات السياسية والمذهبية الإسلامية وصار لهم شأن كبير فى توجيه الحزبية السياسية والمذهبية فوق تلك العصبية الجنسية أو العنصرية التى نهضوا بها وكانت أولى خطوات الشعوبية.

٣ - من الناحية المعنوية:

وهـــذه الناحية مظهر للجدة والابتكار ثم الكثرة والثراء ثم التنســـيق، وحســـن الترتيب وهكذا، وهذه الحياة الجديدة من شـــأنها أن تفتح المجال لذلك كله ولأكثر منه وليس من طبيعة الأشـــياء أن تمـــوت المعانى القديمة، وإنما قد تتغير وتســـتحيل، وعلى كل فيمكن تناول هذه الناحية المعنوية فى النقط الآتية:

---

(١) راجع تاريخ آداب الشعر العربى «لجوحى زهير» جـ١ ص٢٣٤.

١ - معانٍ جديدة من القرآن:

استمال معانٍ جديدة مأخوذة من القرآن تضميناً حسب المناسبات وذلك مثل قول «الفرزدق»:

ولست مأخوذا بلغو تقوله   إذا لم تعتمد عاقدات العزائم

ضمن قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [سورة المائدة: آية ٨٩]. وقوله أيضا:

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتًا دعائمه أعزّ وأطول

من قوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾. [سورة النازعات: الآيات ٢٧ - ٢٩]. وقوله أيضًا:

وقول «قطرى بن الفجاءة»:

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم   بجنات عدن عنده ونعيم

من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة: آية ١١١]. فى هذه الأبيات شعر دينى جديد ومعان دينية جديدة مما أتى بها الإسلام.

٢ - معانٍ جديدة استلزمها قيام الأحزاب والفرق:

استلزم قيام الأحزاب السياسية والفرق الدينية معانى جديدة ترد تقريرًا للمذاهب وفى أثناء الجدل حولها، وهى معانٍ دينية وسياسية معًا، من ذلك قول «الكميت» الشاعر الشيعى يحتج لبنى «هاشم» بشأن الخلافة ويرد على الأمويين قولهم:

يقولون لم يورث ولولا تراثه   لقد شركت فيه بكيل وأرحب

ولا ننشلت عضوين منها بحابر   وكان لعبد القيس عضو مُؤرَّب

فإن هى لم تصلح لحى سواهم   فإن ذوى القربى أحق وأوجب

فيا لك أمرًا قد أشتت وجوهه   ودارًا ترى أسبابها تتقضب

وقول «عون بن عبيد الله» كان مرجئًا ثم عدل عن الإرجاء:

فـأول مـا أفـارق غير شك　　أفارق مـا يقول المرجئونـا
وقـالـوا مؤمن من آل جور　　وليـس المؤمنون بجائـرينا
وقـالوا مؤمـن دمـه حـلال　　وقـد حرمت دماء المؤمنينا

وقول «عمران بن حطان» من الخوارج الزاهدين يختصر مذهبهم:

ونحن بنـو الإسـلام والله ربنـا　　وأولـى عباد الله بالله من شكر

ومن المعانى السياسية ما قاله «مسكين الدرامى» لما أوعز إليه «معاوية» أن يدعو لبيعة «يزيد» ابنه من مطولة:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عـامر　　ومـروان أم مـاذا يــقــول سـعـيـد
بـنـى خـلـفـاء الله مـهـلاً فـإنـمـا　　يـبـوئـهــا الـرحـمـن حيـث يريـد
إذا المـنـبـر الغربـى خـلاه ربـه　　فـإن أمـيـر المـؤمـنـيـن يـزيـد

ومن ذلك ما قاله «كعب بن جعيل» شاعر أهل الشام:

أرى الشام تـكـره مـلـك العـرا　　ق وأهـل العـراق لـه كـارهيـنـا
فـقــالــوا: عــلـى إمــام لـنــا　　فـقـلـنــا رضينا ابن هند رضينا
وقـالـوا: نرى أن تدينـوا لنـا　　فقـلـنـا ألا لا نـرى أن نـديـنـا
ومـن دون ذلـك خـرط الـقـتـا　　د وضـرب وطعن يفض الشئونـا

ويرد عليه «النجاشى» أحد بنى الحارث بن كعب شاعر أهل العراق:

دعـا يـا معـاوى ما لـن يكونا　　فـقـد حـقـق الله مـا تحذرونـا
أتـاكـم عـلـىّ بـأهـل العـرا　　ق وأهل الحجاز فما تصنعـونـا

٣ - توليد بعض المعانى الجديدة:

وذلك من التنافس وكثرة معالجة الشعر والتأنى فيه وذلك مع استحالة الزمن وتقدمه وتمدين العقل العربى يؤدى إلى الابتكار والتجديد، من ذلك ما تهكم به جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا　　أبشر بطـول سلامـة يـا مربـع

وقوله :

إذا غضبــت عليك بنـو تمـيـم　　حسبت النـاس كلهـم غضـابـا

وقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابتـه　　فـمـا يكّلـم إلا حـيـن يـبـتـسـم

وقول الأخطل :

صـريع مدام يرفع الشرب رأسه　　لتحيـا وقد مـاتت عظـام وفصل
تهـاديه أحيانًا وحينـًا تـجـره　　وما كـان إلا بالحشــاشة يعقـل
إذا رفعـوا عظمـًا تحـامـل صدره　　وآخـره مـمـا نـال منهـا فحبّـل

على أن البيت فى جدة هذه المعانى لا ممًّا يصعب ولكنها ظاهرة الروعة على كل حال.

٤ - معانٍ من وحى الإسلام:

وهناك معانٍ إسلامية، أى من روح الإسلام ووحيه كقول «قطرى بن الفجاءة» :

أقـول لـهـا وقـد طـارت شعـاعًا　　مـن الأبطـال ويحك لـن تداعى
فـإنـك لـو سـألـت بـقـــاء يـوم　　عن الأجل الذى لك لن تطـاعى

وقال «جرير» فى رثاء زوجه :

صلى الملائكة الذين تخيَّروا　　والطيبـون عـلـيـك والأبـرار

وقال «الكميت» فى بنى هاشم:

إلى النقد الأبيض الذين يحبهم　　إلـى الله فـيـمـا نـابنى أتـقـرب

وهناك هذا الشعور الإسلامى الجديد الذى كان يغمر الشعراء فى جو إسلامى جديد، ونظام حكومى جديد وحياة مدنية جديدة تخالف ما يعرفون من قبل، فالشعور مهذب، على العموم فيه روح الإسلام، والخوف من الحاكم، وحدود الدين ظاهرة والانتباه إلى الحياة المدنية المنظمة، كل ذلك تجده فى شعر الغزلين المتعففين الذين يحجبهم عن الإثم تقى الله واستحياء المحارم، وفى شعر غيرهم الذين يذكرون مكة وشعائر الإسلام والحج، وفى شعر الأحزاب الذين يتأثر بروح الدين، وفى شعر الفحول الذين يخافون الولاة.

٥ - ترتيب المعانى:

ترتيب المعانى مسألة طبيعية لأن العقل العربى هدأ واستقر، ثم أخذ يتحضر، والشعراء يصنعون القصيد ويعنون به، وينشئون فصوله فى ترتيب، ولذلك ظهرت وحدة القصيدة واضحة فى العهد الإسلامى على الرغم من هذه الديباجة الغزلية التى لزمتها وليست الوحدة شيئًا جديدًا فهى متوافرة عند كثير من شعراء مضر فى الجاهلية «كزهير والنابغة، والأعشى» ولكنها قويت فى العصر الأموى وصارت عامة شاملة، وقد ساعد على ذلك ما ظهر عند الشعراء الموالى من هذا الارتباط والتنسيق الذى يرجع إلى الروح القصصى الفارسى، كما هو ظاهر عند «إسماعيل بن يسار» فى قصيدته المشهورة:

كلثم أنت الهم يا كلثم ... وأنتمو دائى الذى أكتمُ
أكاتم الناس هوىً شفنى ... وبعضُ كتمان الهوى أحزم
قد لمتنى ظلمًا بلا ظِنّةٍ ... وأنت فيما بيننا ألومُ

■ ■ ■

بيئات الشعر فى العصر الأموى

البيئات الشـعرية فى العصر الأموى ثلاث هى: «الحجاز، ونجد، والعراق» يعنى أنها كانت فى غير موطن الخلافة، وإذا كان الشّـعر يَرْحَل، أو ينتقل إلى «دمشـق» مثل السلع الأخرى كان يربى وينشـأ فى تلك المراكز الرئيسية، ثم ينتقل إلى الشّام أو مصر مثلاً فقد وفـد «عبد اللّه بن قيس الرّقيات» و«الأحوص» و«جميـل» على «عبد العزيز بن مروان» فى مصر كما كان «الفرزدق» فى مصر، فلم يعرف فى القرن الأول شـاعر ولد فى مصر، ونشـأ فيها ومات، وكذلك الشـأن فى بلاد الشام فكان الشـعّراء يفدون على الخلفاء والأمراء فى «دمشق» مادحين، ثم يعودون إلى العراق أو نجد أو الحجاز حتى «الأخطل» شاعر الأمويين أصله من بلاد الجزيرة، أو العراق، وإن عاش فى الشـام زمن «يزيد بن معاوية» ولكنه عاد إلى وطنه ووفد على «عبد الملك بن مروان»، وربما كان «عدى بن الرقاع» هو الشاعر الشامى الوحيد الذى نشأ فى الشّام وعاش ومات بها، واتصل بالوليد بن عبد الملك شاعره، وكان بينه وبين الشـاعر «جرير» مُلاَحَاة، وكان يتكلف الشـعر ويصنعه فهو يشبه شعراء الموالى الذين أخذوا الشـعّر تعلّمًا وصناعة، وكذلك كان الشـأن فى بلاد الشرق من العراق العجمى إلى الصين حيث كان الشعراء يفدون على الأمراء فيها دون أن ينبغ منها شاعر.

وقد أقام فى «الحجاز» الشـعراء المترفون فى «مكة» و«المدينة» وأقام فى «نجد» شعراء الباديـة المحافظون، وكانوا على صلة وثيقة بالعراق يفدون إلى البصرة والكوفة ولا يقيمون إلا قليلاً، ثم يعودون إلى البادية كل من جرير والفرزدق.

كان الفـرزدق يعيش فى البادية وهى بادية «تميم» إلا إذا اضطرته الظروف أن يفد إلى «البصـرة» و«الكوفـة» فترة ما ثم يعود إلى قومه، وأما الأخطل فهو عراقى معروف. وتعليل ذلك أن العراق بلاد غنية لجأت إليها القبائل من قديم الزمن واستقرت فيها جماعات من «ربيعة» و«بكر» و«تغلب» التى منها الشـاعر «الأخطل» فهو تغلبى معروف. وكذلك الشاعر «القطّامـىّ» ومن «مضر» التى منها، أو من فروعها «دَارم» قوم الفرزدق ويربوع قوم «جرير» وهذه كانت متبدية ثم قبائل «قَيْس» وكانت أيضا متبدية، ثم ذهبت إلى الشّام واستقرت فى «قرقيساء» فكان شمالىّ «نجد» مستقر قبيلة «تميم» و«قيس» وبقى جلَّ قبيلة «تميم» فى البادية.

وأما احتجاز القرشـيين ومن إليهم فى «الحجـاز» خوفًا منهم ثم ترضيهم بالمال أيام «بنى أميـة» ثم عكوفهم على ملذاتهم، وفنونهم، ذلك الأمر جعل للحجاز مكانة شـعرية غزلية معروفة. وإذا كان الشـعر حجازيًا، وعراقيًا، ونجديًا، فإن التعبير الإقليمى لم يكن خطيرًا بين الجاهلية والإسـلام، لأن الأوضاع العربية لم تتغير كثيرًا، فعاصمة الأمويين السياسـية تقـع على أطراف الجزيرة العربية، وسياسـة الدولة لا تقع على أطراف الجزيرة العربية، وسياسـة الدولة عربية، وحكامها عرب، وجيوشـها من العرب، وحملتها قبائل عربية، وللأماكن المقدسـة مكانة ملحوظة على كلّ حال. فإننا نلاحظ أن البيئة النجدية هى التى حفظت مكانتها فى الجاهلية والإسـلام إذ كانت موئل الشـعر فى الجاهلية، وصارت فى الإسـلام مدرسـة للعقيدة، نشأ فيها الشـاعر «جرير» و«الفرزدق» و«الراعى النميرى» و«ذو الرمة» والرجاز وسـائر الفحـول، وأما البيئة الحجازية فقد كثر شـعراؤها الغزليون وقوى فنها، وكان فنًّا جميلاً طريفًا ودقيقًا.

وأما البيئة العراقية فقد كانت هيّنة الشعّر تعد إليها من البادية وربما لا يذكر لها شاعر مثل «عدى بن زيد» وأما أمثال الشـاعر «الأخطل وجرير والقطامى والفرزدق» فكانوا جميعا وفودًا على العراق.

فقد كانت البيئة العراقية بيئة محافظة، وكانت البيئة الحجازية مجددة. وسنعرض فى هذا المضمار جملة من النماذج الشعّرية الرائعة التى تصور هذا العصر.

النماذج الشعرية

أولا - الشعر السياسى:

مدخل

يمتد العصر الأمويّ اثنتين وتسـعين سـنة هجرية من سنة ٤٠هـ/ ٦٩٠ للميلاد لما انفرد «معاوية بن أبى سفيان» بحكم الشام ونادى بنفسه خليفة، إلى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩ للميلاد. وذلك حين هزم «مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى أمية فى معركة «الزّاب» وسقطت بهزيمته «الدولة الأموية» وبما أن الأعصر الأدبية لا تنطبق انطباقًا تامّا على الأعصر السياسـية فلا بّـد هنـا من التحكم قليلاً فى تفريق الأدباء بين العصـر المخضرم وبين العصر الأمويّ، ثم

بين العصر الأموى والعصر العباسى. وقد اتخذت سنة الوفاة فارقا بين هذه الأعصر، فممن وقعت سـنة وفاته مُوغِلة فى العصر الأموى فهو أموى بلا ريب، وإن كان قد عاش رِدْحًا طويـلا فى عصر الخلفاء الراشـدين مثـل «زياد بن أبيه» حيث إنه ولد فى السـنة الأولى للهجرة وعاش «أربعين سـنة» قبل قيام الدولة الأموية غير أن المروىّ من أدبه يعود أكثره إلى العصر الأموى، وكذلك نحن نعدّ الشاعر «بشار بن بُردْ» شاعرًا من مخضرمى الدولتين «الأموية والعباسية» لأنه عاش نصف حياته الطويلة أو أكثر فى العصر الأموىّ ثم عاش ما بقى منها فى العصر العباسى، غير أننا نصفه عادة فى طبقة الشعراء العباسيين.

أولا - النعمان بن بشير الأنصارى:

هو «النعمان بن بشير بن سعد من بنى مالك الأغرّ بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخـزرج، وأمّه هى «عمرة بنت رواحة» أخت الصحابـى الجليل وأحد قادة «غزوة مؤتة» «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه، ولبشـير بن سـعد والد «النعمان» سابقة فى الإسلام، فقد شهد «بيعـة العقبة» ووقعة «بدر الكبرى» ولما لحق الرسـول ﷺ بالرفيق الأعلى، وأراد سـيدنا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أن يحسم الخلاف بين المسلمين وقدّم «أبا بكر» رضي الله عنه للخلافة كان الصحابى الجليل «بشير بن سعد» رضي الله عنه أول المبايعين لسيدنا «أبى بكر» رضي الله عنه.

أما «النعمان» نفسـه فقد ولد فى السـن ةالثانية للهجرة سـنة ٦٢٤ للميلاد فى المدينة المنورة ﷺ على ساكنها سيدنا «محمد» وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة النبوية الكريمة ولما بلغ التاسعة من عمره جاء إلى الرسول عليه السلام مع رفيق له ليشهد إحدى الغزوات فاستصغرهما النبى عليه السلام وردّهما. بيْد أن «النعمان بن بشير» رضي الله عنه نشأ أمويّ الهوى، فلما قتل سـيدنا «عثمان بن عفان» رضي الله عنه سـنة ٣٥هـ الموافقة ٦٥٦م دفعت إليه نائلة بنت الفرافصة زوج سيدنا «عثمان بن عفان» قميص عثمان فحمله إلى «معاوية بن أبى سفيان» ثم شهد معركة «صفّين» مع «معاوية بن أبى سفيان» وتوّلى «النعمان» القضاء فى مدينة «دمشق» سـنة ٥٣هـ/ ٦٧٣م ثم تولى «الكوفة» «لمعاوية» لمدة «سـبعة أشهر» وتولى «حمص» بعدها. وفى هذه الأثناء تغزل الشاعر «عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى» رضي الله عنه «بِرَملة بنت معاوية» فحمِىَ أنف «يزيد بن معاوية» أى غضب بل استشـاط غضبا لهذا الأمر فاسـتدعى الشـاعر «كعـب بن جعبل» النقّلىّ وطلـب منه هجاء الأنصار فقال لـه «كعب بن جعبل» أَرَادِّى أنت إلى الكفر بعد الإيمان؟ أأهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ؟! ! ولكنى أدلك على شاعر نصرانى وهو منّا يقبل ذلك الأمر يعنى هجاء الأنصار، ثم دله على «الأخطل» فطلب

«يزيد بن معاوية» و«الأخطل» من الجزيرة العربية وأطلقه على «الأنصار» فقال «الأخطل» أبياته الشهيرة التى يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

ونحن لا نُعفِى الشاعر «كعب بن جعبل» من الإثم الذى اكتسبه من جراء هجاء «الأنصار» فهو قد امتنع عن هجومه ولكنه سلط عليهم، وأعان على هجومهم حيث إنه دلّ «يزيد بن معاوية» على «الأخطل» النصرانى وقام الأخطل يهجو الأنصار فما الذى فعله «كعب بن جعبل»؟ لم يهج الأنصار لكنه أعان على هجومهم. فدخل «النعمان بن بشير» على «معاوية بن أبى سفيان» فَحَسَر عمامته عن رأسه ثم قال «يا معاوية» أترى لومًا؟ ثم حسم «معاوية» هذه المادّة وذلك بأن اسْتَرْخى «النعمان بن البشير» وردّ «الأخطل» إلى بلده، وألقى على «يزيد بن معاوية» درسًا فى الحلم والتبصر.

وبقى «النعمان بن بشير» واليًا على «حمص» وهى إحدى مدن «سوريا» حاليًا بقية أيام «معاوية» ثم فى أيام «يزيد» وأيام «معاوية بن يزيد»، ولما دبّ النزاع بين الأمويين على الخلافة بعد «يزيد بن معاوية» مال «النعمان بن بشير» إلى «عبد الله بن الزبير» رضي الله عنه. فأحفظ بذلك أهل «حمص» فلما كانت معركة «مرج راهط» وانهزم جيش «الزبير»، وصارت الخلافة «لمروان بن الحكم» تمرّد أهل «حمص» على «النعمان بن بشير» وقتلُوه سنة ٦٥ للهجرة – ٦٨٤ للميلاد و«النعمان بن بشير الأنصارى» رضي الله عنه صحابى جليل روى عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة، وكان خطيبًا، وشاعرًا مجيدا، وفنون شعره فى «الفخر والحماسة» والتشبث وشعره يدل على متانة سبكه، فصيح الألفاظ، ظاهر المعانى.

ولما جاء «النعمان بن بشير» إلى «معاوية بن أبى سفيان» على رأس وفد للأنصار فى أمر هجاء «الأخطل» لهم قال «للحاجب» استأذن للأنصار، وكان «عمرو بن العاص» رضي الله عنه عند «معاوية» فقال «لمعاوية» قل للحاجب أن يُنادى الوفود بأنسابهم، ففعل الحاجب ذلك فأبى الأنصار أن يدخلوا حتى ناداهم بلقبهم، فدخل الأنصار على «معاوية» يقدمهم «النعمان بن بشير» رضي الله عنه وهو يقول:

يا سعدُ لا تجب النداء فما لَنَا   لَقَب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا   أثقل به نسبًا على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم   يوم القليب هُمُ وقود النار

ولما دخل على «معاوية» قال له من قصيدة أنشدها:

معاوى إلا تعطنا الحق نعترف لحى الأزد مشدودا عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة وماذا الذى تجرى عليه الأراقم
فمالى ثأر قطع لسانه فدونك من يُرضيه عنك الدراهم

ثم طعن على خلافة «معاوية» وفاخر بأعمال الأنصار وأحسابهم وقال:

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يومًا إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى لتلك التى فى النفس متى أكاتم
فما أتت والأمر الذى لست أهلهُ ولكن ولى الحق والأمر هاشم

فلما رأى «معاوية» منه الجد دفع إليه «الأخطل» لقطع لسانه ولكن «يزيد» ابنه استشفع فيه فقبل. ولما استلحق «معاوية» «زياد بن أبيه بأبى سفيان» قال «يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى».

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليَمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زانِ
فاشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتانَ
وأشهد أنها ولدت زيادًا وصخر من سمية غير دانِ

شعر المديح والهجاء:

إن الشعر السياسى لم يخرج عن كونه مدحًا أو هجاءًا بَيْدَ أنه ينصرف إلى الطائفة التى ينتمى إليها القول فيه أكثر مما يتصرف إليه نفسه ومن شعراء هذا اللون «جرير» ونعرف به فنقول:

«جرير»

هو الشاعر جرير بن عطية بن الخطفى وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وهو يلتقى بالفرزدق فى جدهما الأعلى تميم وأمه هى أم قيس بنت معبد من بنى كليب بن يربوع وكذلك كانت جدته لأبيه وهى النوار بنت يزيد من بنى كليب، وهو شاعر وجدانى مطبوع يجمع وضوح المعانى إلى فصاحة الألفاظ، ومتانة التركيب وعذوبة السبك، وشعره كثير السيرورة على الألسن شديد العلوق

بالذاكرة مطاوع للغناء وقد امتاز الشاعر جرير بالفنون الوجدانية وذلك بالنسيب والغزل والرثاء والهجاء وهو شاعر ضالع وبارع فى الوصف والمديح، وكان جرير يجيد الزجر أيضا وبالإجماع على أن جرير قد فاق أترابه ولداته وأقرانه فى الفنون الآتية وهى الغزل والرثاء والهجاء وقد تغلب على جميع الشعراء الذين هاجوه وأحمل ذكرهم جميعا عدا الأخطل والفرزدق لأنهما اجتمعا عليه، ولو أنهما تفرقا لقلبهما وأحمل ذكرهما وهذا دليل على قوة شاعريته ومتانه أسلوبه، وفصاحة ألفاظه، وخياله الرحب.

قال جرير يمتدح الحجاج بن يوسف الثقفى:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ... فأسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرت النفس يا بن أبى عقيل ... محافظة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل ... مع النصر الملائكة الفضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب ... رأى الحجاج أثقبها شهابا

وقال يمدح «عبد الملك بن مروان»:

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح
يقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب بمنفى مراحى

وقال جرير يهجو الأخطل:

حى الغداة برامة الأطلالا ... رسما تحول أهله فأحالا
طرب الفؤاد لذكرهن وقد مضت ... بالليل أجنحة النجوم قتالا
قبح الإله وجوه تغلب إنها ... هانت على مراسنا وسبالا
قبح الإله وجوه تغلب كلما ... شيح الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبريل وكذبوا ميكالا
ولو أن تغلب جمعت أحسابها ... يوم التفاضل لم ترن مثقالا[1]

ويقول «الفرزدق» فى مدحته لسيدنا «على بن الحسين» رضى الله عن آل البيت:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم

---

(١) النداه يعنى باكرا - مراسنا جمع مرسن وهو الأنف، شيح الحجيج رفعوا أصواتهم بالتلبية.

إذا رأتـه قـريـش قـال قـائـلـهـا	إلـى مـكـارم هـذا يـنـتـهـى الكـرم
ولـيـس قـولك مـن هـذا بـضـائـره	العـرب تعـرف من أنكـرت والعجم
يقضـى حيـاء ويقضـى مـن مهابتـه	فـمـا يـكـلـم إلا حـيـن يـبـتـسـم
بـكـفـه خـيـزران ريحـه عبـق	مـن كـف أروع فـى عِـرْنِـيـنـه شمم
يـكـاد يـمـسـكـه عـرفـان راحـتـه	ركـن الحـطـيـم إذا مـا جـاء يستلم
ينشق ثـوب الدجـى عن نـور غرتـه	كالشمس تجاب عن إشراقهـا الظلم
مـن مـعـشـر حبـّهـم ديـن وبغضهـم	كـفـر وقـربـهـم مـنـجـى ومعتـصـم
إن عـدا أهـل الـتـقـى كـانـوا أئمتهم	أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم[(١)]

«الغزل»

«جميل بثينة»

هو الشـــاعر «جميل بن معمر» ويكنى «أبو عمرو» من بنى عذرة من قضاعة المنتسبين إلى معد من غرب الشـــمال بيد أن أمه جذامية من اليمن وفى عمود نسب جميل من جهة أبيه اختلاف فى اســم أبيه نفســه، ولد «جميل» نحو سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠م فى «وادى القرى» من شمال الحجاز وعلى مقربة من المدينة، ونشـأ هناك أيضا، وكان جميل فى أول أمره يميل إلى ابنة عمه «أم الجير بنت حبأ» ثم تعلق بأختها «بثينة» وتعلقت به «بثينة» فخطبها إلى أبيها ولكن أبيها رده وزاد ولع جميل بمحبوته «بثينة» فجعل يقول فيها الشـعر فاستعدى أهلهـا عليــه «مروان بن الحمك» وكان واليا من قبل «معاوية بن أبى سـفيان» على المدينة للمـرة الثانيــة ٥٦ هـ - ٥٧ هـ، وكان عاملــه علــى وادى القرى دجاجة بــن ربعى فتوعد «دجاجــة بن ربعى» «جميلا» إن هو زار بثينة أو تعرض لها، فهرب جميل إلى أخواله من «بنى جــذام» فى «اليمن» وفى ذى القعدة من ســنة ٥٧ هـ/ خريــف ٦٧٦م عزل مروان عن المدينة واتفق أن انتجع أهل بثينة إلى الشام بأنعامهم فجاء جميل إلى الشام ثم عاد إلى وادى القرى وتزوجت بثينة بابن الأســود العدســى وظل جميل يقول فيها الشعر ويزورها ويبدو أن دجاجــة بــن ربعى أو عامر بن ربعى بن دجاجة ظل عاملا لبنى أمية على وادى القرى فأهدر دم جميل فخاف جميل وهجر الحجاز إلى مصر ليمتدح واليها عبد العزيز بن مروان

(١) ركن الحطيم: حجر الكعبة المعروف بالحجر الأسود.

سنة ٦٥هـ/ ٧٠١م، وجميل بن معمر شاعر فصيح مقدم لدى النقاد سهل التراكيب واضح المعانى متأجج العاطفة.

وشعر جميل كله فى النسيب سوى قطعتين أو ثلاث إحداها فى المديح ولجميل شعر هجا به زوج بثينة وقومها ومن الهجاء الموجع من الفرزدق لجرير قوله:

أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى ... عظام المخازى عن عطية تنجلى
أمن جزع أن لم يكن مثل غالب ... أبوك الذى يمشى بريق موصل
وإن تهيج آل الزبرقان فإنما ... هجوت الطوال الشم من هضب يذبل
وقد ينبح الكلب النجوم ودونها ... فراسخ تغنى العين للمتأمل

ويقول «جرير» فى «الفرزدق»:

كذب الفرزدق لن يجارى عامرا ... يوم الرهان بمقرف[1] مبهور
ولقد جهلت بشتم قيس بعدما ... ذهبوا بريش جناحك المكسور
لن تدركوا غطفان لو أجريتم ... يا ابن القيون ولا بنى منصور
فخروا عليك بكل سام معلم ... فافخر بصاحب كلبتين وكير
كم أنحيوا بخليفة وخليفة ... وأمير صائفتين وابن أمير

ومن أبدع الغزل قول الشاعر «ذو الرمة»:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى معزية سرب
استحدث الركب عن أشياعهم خبرا ... أم راجع القلب من أطرابه طرب
لمياء فى شفتيها حوة لعس ... وفى اللثاتِ وفى أنيابها شنب
كحلاء فى برج صفراء فى نعجٍ ... كأنها فضة قد شابها ذهبُ[2]

الفخر والحماسة

قطرى بن الفجاءة

هو الشاعر «قطرى بن الفجاءة بن مازن بن يزيد بن يزيد مناة» ويكنى أبى تهامة وهو من «كابية بن حرقوص» وكان الشاعر «قطرى بن الفجاءة» فى أول أمره مواليا للأمويين، وسار

(١) مقرف يعنى أبوه أعجمى. وكان يرمى جد الفرزدق بأن أباه قين. مبهور – مقطوع النفس.

(٢) اللمى – سمرة الشفة. اللعس: الحمراء فى سواد الشنب. بريق ولمعان فى الأسنان. الدعج: سعة العين.

مع «المهلب بن أبى صفرة» إلى المشرق وشهد فتح سجستان بقيادة «عبد الرحمن بن سمرة» سنة ٤٢ هـ/ ٦٦٢م. وبيد أنه بقى على ذلك زمنا طويلا ثم خرج فى مطلع ولاية «مصعب بن الزبـير» على العراق ٦٦ هـ - ٧٢ هـ. حينما كان العـراق تابعا «لعبد الله بن الزبير» واعتنق مذهـب الأزارقـة والأزارقة من الخوارج وهم أتباع «نافع بن الأزرق» وكان يرى أن مخالفيه مشركون يجب قتلهم مع نسائهم وأطفالهم.

وانتشـرت دعوة الأزارقة فى عمان واليمامة ثم فـى الأهواز وكرمان من بلاد فارس وقد أرسل عبد الله بن الزبير لقتالهم جيوشا فهزموها كلها، ثم إن عبد الله بن الزبير كتب إلى «المهلـب بن أبى صفـرة» يأمره بحرب الأزارقة فانحدر المهلب إلى البصرة وحارب الأزارقة وهزمهم فى سلسلة من المعارك فى الأهواز قتل فيها نافع بن الأزرق ٦٤ هـ/ ٦٨٣م ثم قتل فى الأهواز عبيد الله بن مامون التميمى ثم أخوه عثمان فانهزم الأزارقة إلى إبذح فى الأهواز وبايعوا قطرى بن الفجاءة سـنة ٦٩ هـ. وسموه أمير المؤمنين ونصب المهلب الحرب لقطرى ابن الفجاءة تسـع عشـرة سـنة كان جلها فى زمن عبد الملك بن مروان وواليه على العراق الحجاج بن يوسـف الثقفى وكان الحجاج قد أقر المهلب على حرب الخوارج وسـار قطرى ابن الفجاءة إلى طبرستان فأخذ الجزية من أهلها فولى عندئذ الحجاج على الرى سفيان بن أبرد الكلبى وأمره بحرب الخوارج وتخلى عن قطرى بن الفجاءة معظم أتباعه وسقط قطرى قتيلا سنة ٧٨ هـ. ٦٩٧ م. فى الأغلب.

وكان الشاعر «قطرى بن الفجاءة» فارسا شجاعا، مقداما وكان خطيبا وشاعرا أما شعره وقد كان فى الحماسـة مع الاسـتهانة بالموت يصدر فيه عن نفس أبيه وشهامة عربية متين السبك شديد الأسر وأما خطبه فقد جاءت فى الحث على التقوى والتزهيد فى الدنيا.

يقول قطرى بن الفجاءة فى الحماس.

أقول لهـا وقـد طـارت شعاعـا ... مـن الأبطـال ويحـك لا تُراعـى

فإنـك لـو سألـت بقـاء يـوم ... علـى الأجل الذى لك لـم تطاعـى

فصبـرا فـى مجـال المـوت صبـرا ... فمـا نـيـل الخـلود بمستطـاع

سبيل المـوت غـايـة كـل حـى ... فـداعيـة لأهـل الأرض داع

ومـن لا يعتبـط يسـأم ويهـرم ... وتسلمـه المنـون إلـى انقطـاع

ومـا للمـرء خيـر فـى حيـاة ... إذا مـا عـد مـن سقـط المتـاع[1]

(١) غاية يعنى نهاية. شعاعا. متفرقا لا تراعى: لاتخافى.

ويقول الفرزدق:

ألــم تـــر أنـــا بنـــى دارم　　ذرارة منـــا أبـــو معبـــد
ومنـــا الـــذى منـــع الوائـــدا　　ت وأحيـا الــوئيـد فلــم يــوأد
ومجـــد بنـــىدارم دونـــه　　مكـا السمـاكيـــن والفــرقــد

«**الوصف**»

الأخطل

هو الشـاعر «غياث بن غوث» ويكنى «أبى مالك» وهو من بنى عمرو وكانت أمة تدعى ليلى وكنيتها أم كعب وولد الأخطل فى الحيرة نحو سـنة ٢٠ هـ/ ٦٤٩ م. ونشأ فيها يقول الشـعر مغرما بالهجاء، وكان جريئا على الناس سفيه اللسان فلقب الأخطل وكان نصرانيا ولم يكـن ملتزما بتعاليم المسـيحية حيث طلق امرأته وتـزوج أيضا بمطلقة واتصل الأخطل بالبلاط الأموى مرتين وهو الذى قام بهجاء الشاعر «عبد الرحمن بن حسان بن ثابت» حيث شبب برملة بنت معاوية بن أبى سفيان وكان مما هجاه به قوله:

إذا نسبت ابن الفــريعـــة خلتـــه　　كالجحش بـين حمـارة وحمـار
لعن الإله مـن اليهـــود عصـابـــة　　بالجـزع مــن صليصـل وســرار
خلوا المكـارم لستـــم مـــن أهلهـــا　　وخذوا مساحيكـم بنـــى النجـار
ذهبت قريـــش بالمكـــارم كلهـــا　　واللؤم تحـت عمـائـم الأنصـار

وفى الوصف يقول الأخطل فى وصف الكأس:

وكأس مثل عيـن الديـــك صـــرف　　تنســى الشاربيــن لهـــا عقــولا
إذا شربت القنـى منهـــا ثـــلاثـــا　　بغيـــر المـــاء حـــاول أن يطـــولا
مـشـى قريشيـــة لا شـــك فيهـــا　　وأرخـــى مـــن مـــأزره الفضـــولا

وقال يصف سكران:

صريع مدام يرفع الشـــرب رأســـه　　ليحيا وقد مالـت عظـام ومفصـل
تهـاديـــه أحيانـــا تجـــره　　وما كاد إلا بـــالخشـاشـة يعقـل
إذا رفعوا صدرا تحـامـل صـدره　　وآخر ممـــا نـــال منهـــا محمـل

وقال الشاعر حصين بن معاوية المعروف بالراعى النميرى يصف بيضة نعام حضنتها ظلم بالليل ثم تركها عند طلوع الشمس ينتفض، فقال:

وما بيضة بـــات الظليـم يحفهـــا وعثاء أعلى تـــربهـــا قنـــدليـــدا
فلما علته الشمس فـى يـــوم طلقـــة وأشـــرق مكاء الضحـــى فتفـــردا

ويقول الشاعر الأحوص بن محمد الأنصارى يصف نفسه فى حال شبابه، وشيبته:

نـــزل المشيـــب فمـــالـــه تحـــويـــل ومضى الشبـــاب فما إليـــه سبيـــل
ولقد رآنى والشبـــاب يقـــودنـــى ورداؤه حســـن علـــى جميـــل
وعلى مـــن ورق الشبـــاب وظلـــه غصن يفرع فـــى الغصـــون ظليـــل

ويقول الشاعر حميد بن نور الهلالى يصف حمامة تسجع:

مطوقـــة خضبـــاء تسمـــع كلمـــا دنا الصيف وانزاح الربيع فأنجمـــا
تغنـــت علـــى غصـــن فلـــم تـــدع لنائحه فـــى نـــوحهـــا متلـــومـــا
فلم أر مثل شاقـــه صـــوت مثلهـــا ولا عـــربى شاقـــه صوت أعجمـــا[1]

شعر الرثاء

لما مات الشاعر «الفرزدق» رثاه «جرير» وهو مما يحمد له:

لعمرى لقد أشجـــى تميمـــا وهدهـــا على نكبات الدهر مـــوت الفـــرزدق
عشيـــة راحـــوا للفـــراق بنعشـــه إلى جدث فى هـــوة الأرض معمـــق
لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى إلى كل نجم فـــى السمـــاء محلـــق
عمـــاد تميـــم كلهـــا ولســـانـهـــا ونـــاطقها البذاح فـــى كـــل منطـــق
فمن لذوى الأرحـــام بعد ابن غالـــب وأم عيـــال ســـاغبيـــــن ودردق
ومن يطلق الأسرى ومن تحقن الدما يـــداه ويشفى صدر حـــران محنـــق
فتى بعنى المجد تسعيـــن حجـــة وكان إلى الخير والمجـــد يـــرتقـــى

ولما مات «الوليد بن طريف» رثته أخته «الفارعة» وهى من شواعر الخوارج:

أيا شجر الخابـــور مالـــك مـــورقـــا كأنك لم تجزع على ابـــن طريـــف
فتى لا يـحـــب الـــزاد مـــن التـقـــى ولا المـــال إلا مـــن قنـــا وسيـــوف

---

(١) يوم طلقه يعنى لا حر ولا برد.

إلى أن قالت :

فـــإن أراده يريـــد بـــن مزيـــد فـــرب زخــــرف لقهـــا زخـــرف
عليـــه ســــلام الله وقـــفـــا فإنـــى أرى الموت وقافا على كـل شريـــف

■■■

النثر الفني
فى عصر بنى أمية

النثر فى عصر بنى أمية

قبل الكلام على ميزات النثر فى عهد الدولة الأموية يحسن بنا أن نلم بتاريخ النثر العربى من الجاهلية إلى عصر بنى أمية لعل فى ذلك ما يعين على الموازنة وعلى تبيين خصائص النثر إلى آخر القرن الأول، وأوائل القرن الثانى.

وقبل الهجوم على هذا الموضوع يحسن بنا أيضا أن نلاحظ الفروق بين أنواع النثر لتكون ملاحظتنا على هذه الأنواع محدودة ودقيقة. فهناك الحديث العادى أو لغة التخاطب وهذا لا يعد أدبا إلا إذا احتوى حكما وأمثالا أو صور الحياة تصويرا دقيقا فى لغته الشعبية فينشأ منه الأدب العامى أو الشعبى المشهور.

وهناك فن القصص الذى يحكيه العرب بلغاتهم السليمة محتويا على حوادث تاريخية أو خرافية أو أسطورية وهو فن له قيمته الأدبية.

وهناك الخطابة وهى الفن العام الذى تخاطب به الجماهير قصد التأثير أو الإقناع فى مواطن سياسية واجتماعية وقضائية، ودينية (وبرلمانية).

وهناك الكتابة التى تتناول إنشاء الرسائل والمقامات والتقاليد ثم تستحيل فتشمل النقد الأدبى والعلوم والتاريخ والبلاغة ونحوها.

وهناك الجدل والحوار الذى يوضع حقا أو على ألسنة شخصيات وهمية للدرس والتهذيب وسنتناول بشىء من التفصيل بعض هذه الأنواع ونترك الباقى لعدم الحاجة إليه.

١ - لغة التخاطب

أما لغة التخاطب فالمفهوم أنها فى الجاهلية سليمة فى الغالب من حيث كلماتها وتراكيبها ولكنها كانت تختلف لهجاتها باختلاف القبائل، ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هنة أو هنات ذكر بعضها صاحب الوسيط، والمزهر، والخصائص ومن الطبيعى زيادة على هذا الاختلاف أن يتطرق اللحن أحيانا إلى بعض الناشئة أو المتصلين بالأعاجم أو الموغلين فى القفر البعيدين عن جمهرة العرب.

ولكن شيئا من ذلك لم يصل إلينا رواية سليمة – كذلك لا يعرف بالدقة ما يفرض من أن هذه اللغة كانت خالية من الإعراب مطلقا أو عند العامة دون الخاصة أو هل الإعراب كان

فى لغة الشـعر دون الخطابة والكتابة أو أنه كان خاصا بلغة أواسـط الجزيرة دون أطرافها لمجاورتها أمم الأعاجم بقيت فصيحة معربة فى مبدأ الإسـلام بين العرب الخلص والموالى النابتـين فيهم، أما الطارئون عليهم فكانت لغتهم تقترب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حسـاب طول لبثهم فيهم، أو قصر مقامهم عندهم – وقد تقدم أن أشـرنا إلى ذلك من الجزء الأول فصل المحادثة ولما فتح المسـلمون الأمصار، وكثر الأعاجم وأسـرى الحروب ودخل الإسلام منهم ألوف وأصبحوا لهم إخوانا وشركاء فى الدين وتم بينهم التزاوج والتناسل نشأ للعرب فرية من فتياتهم الأعجميات اختلطت عليهم ملكة العربية لتلقيهم عن آبائهم عربية فصيحـة، وعن أمهاتهم خليطا منها ومن الأعجمية، وكذلك كان الشـأن فى المتعربين من الأعاجم إذا أصبحت لهم لغة تخاطب عربية مشـوبة بشـىء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف.

أمـا العرب أنفسـهم بعد الفتوح فكانـت لغتهم فى جزيرتهم مثل مـا كانت عليه فى جاهليتهم – وأما سكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثـيرا بالمعاملة والتسـوق لم تخـل لغتهم من لحن أو هجنة، والخاصة منهم تشـددوا فى المحافظة على سـلائقهم وتحاموا التزاوج بالأعجميات وبالغوا فى تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية فكانوا يرسـلونهم إلى البادية ليروضوهم على الفصاحة وينشأوا نشأة الأعراب الفصحـاء أو يحضـروا لهم المؤدبـين، والمعلمين من أفصح النـاس وأعلمهم ليخرجوهم فى الإعراب واللسن.

كذلـك كان يفعـل خلفاء بنى أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبى سـفيان فى تربية ابنه يزيد ومن لحق من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وأشراف العرب فى زمانهم ولو لحن مرة عُدّ ذلك عليه عارا لا يمحى، وسيئة لا تزول ومن هؤلاء اللحانين «عبيد الله بن زياد» – كان واليا على العراق فى مدة «معاوية» و«يزيد» ابنه وكانت أمه فارسية – والوليد بن عبد الملك وهو الخليفة الأموى الذى أشفق عليه أبوه من أن يرسله إلى البادية فتربى فى المصر، وتعلم العربية بالصناعة فعرض لكلامه بعض اللحن و«خالد القسرى» والى العراق من قبل الخليفة هشام وكانت أمه نصرانية وكان من أبلغ الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن – مع أن بعض هؤلاء كان من أبلغ الناس وأبينهم – ومن هنا تعلم السـر فى شـروع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشـكل والإعجام، كذلك كانت السـلامة من اللحن شرفا عظيما يعد من مفاخـر الرجـال، ولقد ذكروا أن أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل الشـعبى، وعبد الملك

والحجاج وابن القرية وكان الحجاج أفصحهم على أنه قد نسب للحجاج لحن فى بعض المواطن وكذلك عبد الملك وكان اللحن محتملا مع الغضاضة فى غير القرآن فلما طمت المصيبة بوقوع اللحن فى القرآن لم يكن من بد من وضع النحو واختراع الشكل والإعجام.

٢ - الخطابة:

وكانت الخطابة فنا لابد منه للعرب فى الجاهلية لغلبة الأمية عليهم والتجائهم إلى اللسان بدل القلم لتملكهم زمام الفصاحة واستجابتهم لرؤسائهم عند الحاجة ولتفرقهم قبائل يمكن اجتماع كل منها فى مكان لاستماع الخطيب، وكانت تقوم على إثارة الشعور وإيقاظ الوجدان واعتمدت على الأدلة الانفعالية والعبارات الرائعة الموجزة وكثرت فيها الفواصل والأسجاع فلما ظهر الإسلام وكان ظهوره نهضة عامة دينية وسياسية واجتماعية كما تقدم وظهرت الحاجة إلى الخطابة إذ هى الأداة لمثل ذلك لنشر الدين والدفاع عنه وبيان أحكامه ورسم سياسة الدولة الدينية والتشريعية، ولما جاء عصر الأمويين كنا أمام نظام إسلامى داخلى فيه هذه الأحزاب السياسية والفرق الدينية ذات الآراء المختلفة فى أصول الحكم ونظام الدولة، وهى أحزاب تتحارب باللسان كما كانت تتحارب بالسنان ولها أفكار تقوم على الجدل الدينى والسياسى وذلك أمر واضح نشأ فى أقرب درجاته منذ صفين وتكوين أحزاب الخوارج والشيعة والجماعة ثم الزبيريين والمهالبة الذين اتخذوا من الموضوعات والمسائل الدينية التى دار حولها رجال هذا العهد بالبحث والجدل والتشريع فى مدارس شتى شغلت الناس عهدا طويلا.

معنى ذلك أن الدين بتعاليمه – العبادات والمعاملات – كانت الموضوع الأول الذى يعنى به المسلمون إذ ذاك فهو الأساس للنظام الاجتماعى والدينى الجديد، كذلك كانت الأوضاع الجديدة للدولة وما تستدعى من تدوين الدواوين، وتنظيم شئون الخراج، وتولية الولاة، وكتابة التقاليد، ومسائل الجيوش من بين الموضوعات التى استجدت واضطرت اللغة أن تتسع لها والأدب أن يسجله ويصوره وإذا كنا قد أرجعنا رقى الخطابة فى صدر الإسلام إلى ما ولع به القوم من تقليد القرآن الكريم والحديث الشريف، وإلى ما كان من دواع دينية واجتماعية فإن لنا أن نتنبأ لهذا الرقى زيادة وتقدما منذ العصر الأموى فكل استفادة هناك تضاعف أثرها وجل شأنها هنا كغرس كانت باكورته فى صدر الإسلام واليوم أينع ثمره، وتم نضجه وزادت غلته فالقرآن لم يك قد تم استيعاب حفظه فى صدر الإسلام لما كان عليه

العهد من قصر ولما شـغلوا خلاله من الجهاد والغزو والتوسـع والفتح، ولكن بعد أن كتب عثمـان المصاحـف ووزعها على الأمصار عمل خلفاء بنى أمية على استنسـاخها وتوزيعها فتيسـر للناس حفظه وشـرحه ودراسـته وتهيأ لهم أن يتخلقوا فى المساجد مستمعين لابن عباس فى مكة ولزيد بن ثابت فى المدينة وغيرهما فى الأمصار يشرحون للناس المشكل من القرآن ويعلمونهم الناسـخ والمنسـوخ، فكان لدراسة القرآن سـوق نافقة بالخير العظيم على اللغة والدين.

وكذلك كان الشـأن فى حديث رسـول الله ﷺ فقد كثرت الحاجة إليه والاسـتدلال به فى كل ما يقع للمسـلمين أو يجرى بينهم من خلاف حتى انتهى جمعه وتدوينه أيام عمر ابن عبد العزيز.

كذلك كان للوعظ الدينى المستمد من القرآن والحديث أثره القوى، ونفعه العظيم خصوصا بعد أن رتب معاوية ومن خلفه أناس يعظون فى المسـاجد بعد أن كان مقصورا على الأئمة والولاة، كل هذا كان له دخل فى ازدهار الخطابة السياسية والدينية والاجتماعية على ما سنبينه بعد.

١ - ازدهار الخطابة السياسية:

لقد كان إعلان خلفاء بنى أمية أنهم أحق الناس بقيادة هذه الأمة وسياسـتها وحكمها فبـدأ فى خطبهم النزعة السياسـية وغلب عليهـا التحرر من التقاليـد الدينية وكثر فيها الاستشـهاد بالشـعر وقل الاقتباس من القرآن بل غلا بعضهم فترك الحمد فى أول الخطبة كما فى خطبة زياد البتراء.

وهـذا النوع كان يغلب عليه ضخامة اللفظ، وشـدة الأسـر، والعنـف والوعد والوعيد والتهديد والإسـراف فى السب والشتم حتى لقد استن معاوية سنة سيئة وهى سب «على» على المنابر – إلى أن أبطلها عمر بن عبد العزيز وهذا المظهر السياسـى حتم على الدولة أن يكون لها خطباء يناضلون عنها، ويبشـرون بمذهبها كما قضى على الأحزاب الأخرى أن يكـون لها أيضا خطباء وهذا من شـأنه أن يروج الخطابـة ويقويها ويحمل أصحابها على اسـتنباط الحجج، وحسـن التفكير وقوة التأثير وخير ما يمثل هذا النوع هو خطب «زياد والحجاج».

٢ - ازدهار الخطابة الدينية:

كانت الجماعات التى تناوئ الأمويين ترى أن بنى أمية لا يصلحون للخلافة ولا لحكم المسلمين فنددوا بالحكام وظلمهم، وتنكبهم عن الجادة، والتقصير فى تنفيذ أحكام الشريعة، وهذه النزعة فى الواقع متشحة برداء السياسة لأنها تدور وتهدف إلى تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم والخروج على الحكام، وإنما لاصطباغها بالصبغة الدينية وامتلاكها الأفئدة، وصدورها من أناس لهم نزعات دينية قوية متمكنة من نفوسهم وهذا جعلنا نميز هذا اللون عن قسيمه السياسى كما تشيع فى هذه الخطب الدنيا والتحذير من غرورها ومفاتنها وتوجيه النفوس إلى الآخرة ونعيمها وغير ذلك من الأفكار الدينية التى تطمئن لها النفوس، وتروق لها المشاعر، وتخبت لها القلوب، وكان خطباء هذا اللون يلتزمون الحمد فى أولها والصلاة والسلام على النبى ﷺ وكثرة الاستشهاد بالقرآن والاقتباس منه حتى إن بعضها كان قرآنا كخطبة «مصعب بن الزبير».

وهذا النوع أفاد الخطابة من ناحية التفكير العميق ومن ناحية التعبير الدقيق الواضح وخير ما يمثل هذا النوع هو خطب الخوارج والعلويين والزبيريين.

٣ - ازدهار الخطابة الاجتماعية:

كان المجتمع الأموى يرزح تحت أعباء من الخلافات الحزبية المتنافرة المتلاحية فعملت على تفرق الأمة إلى طوائف وجماعات وأن تتراشق بالكلام، وتتصاول بالحجج، وتتدافع بالرأى، وتتقارع بالتّهم ولكل جماعة نشاط دائب، وحركة مستمرة، وقول تردده السيئات، وتتناقله المجامع.

أضف إلى ذلك اختلاطها بالأمم المفتوحة ذات المظاهر الحسية والحضارة، والثقافة، وما يستتبع ذلك من ترف الحياة، والعادات والتقاليد، والنظام المتصل بالقصور، والاستماع للغناء. كل ذلك أفاد الخطابة وأكسبها مزيجا من الأدب الطريف الذى يلمح إلى معالم النفس الأعجمية على الرغم من هذا الأسلوب العربى الطاغى وهذا اللون من الخطابة اشترك فيه كل الطوائف من خلفاء وأمراء، وحزبيين، ورجال القبائل من كل الأصقاع، وجميع البقاع.

أسلوب الخطابة:

لقد حرص خطباء هذا العصر على أن يكون لكلامهم موضوع مرتب واحد له مقدمات ونتائج بحيث يجمع بين الفائدة والتأثير فبدا في نثرهم ظاهرة معنوية هى التنسيق المعنوى، فمعانى الخطبة مرتبة متواصلة فى منطق أدبى سليم لا اضطراب ولا فوضى، متماسكة الفقرات متلائمة مترابطة لها هذه الوحدة التى نفقدها فى الأدب الجاهلى فإنك تلاحظ مثلاً «قس بن ساعدة» فى خطبته عبارة عن سجع منثور، وكل سجعة فيها معنى مستقل بحيث يمكنك التقديم والتأخير والحذف والذكر دون أن يؤثر ذلك فى صورة الخطابة ونسقها لأنها أفكار منثورة.

أما فى عصرنا الذى نؤرخه فالمعانى خضعت للنظام فى تأليفها وابتكارها وقيمتها لأن العصر لم يعد عصرا جاهليًّا فيه فراغ وإنما هو عصر خلاف ودعوة وتزاحم ومنافسات ونظام حضرى فاستدعى أن يكون الأدب الأموى صورة ملائمة للدولة الإسلامية الجديدة، كذلك حرص خطباء هذا العصر وأدباؤه على العناية اللفظية بتهذيب اللفظ واختيار أروجه وأليقه بهذا العصر الجديد، وصوغ العبارات وتيسيرها والانتفاع بالقرآن وأحاديث الرسول والاقتباس والتضمين لهما والخضوع آخر الأمر لقواعد الخطابة أولها وآخرها فكان فى الأساليب بلاغة وسمو من حيث الألفاظ المفردة والجمل المركبة، والعبارات المرسلة فإن هذا العهد الجديد كسر من حدة العنجهية الجاهلية ورسم للأدباء مثلا عليا لاختيار الألفاظ، وصوغ التراكيب، وإحكامها مسلسلة جميلة أو جزلة قوية.

كذلك كان للتهذيب النفسى والذوقى أكبر أثر فى هذا العمل ذاته فأثر العصر الجديد قائم على طريقة مباشرة بما عرض للقرآن من بيان معجز وبما هذب الدين من النفوس والأذواق، فإذا تتبعت فحول الخطباء رأيت جزالة قوية وأساليب فخمة تعيد إليك الأدب الجاهلى ولكن بصورة أبدع نظامًا وأجزل أسلوبا، وأطرق معانى تذكرك دائما بفضل القرآن، وبراعة تصويره، وجمال تعبيره فى أنماط من الأدب الإسلامى الجميل نجمله فى المظاهر الآتية:

١ – ترك الحُوشى من الكلام غالبا ولا سيما عند الخطباء الدينيين.

٢ – الجزالة: وهى عكس الرذالة والسخف الذى ينحو نحو العامى الساقط وخصوصا عند «زياد والحجاج».

٣ – العبارات الإسلامية من القرآن والحديث اقتباسًا أو تضمينًا، خصوصًا عند الخطباء الدينيين.

٤ – الأسـلوب القرآني فى القصص والجدل والتمثيل لقيام العصبيات وشدتها ولسخاء الحكام وكثرة ما كانوا يغدقون.

نماذجها:

١ – خطب «معاوية» بالمدينة سنة ٤١ عام الجماعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد، فإنى والله ما وليتُها بمحبة منكم، ولا مسرة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسى على عمل «ابن أبى قحافة»، وأردتها على عمل «عمر» فنفرت من ذلك نفارًا شديدًا، وأردتها على سُنَيَّات «عثمان» فأبت علىَّ فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسـنة، ومشـاربة جميلة فإن لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية، والله لا أحمل السـيف على من لا سـيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يُشـتفى به القائل بلسـانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى[1] وتحت قدمى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كلـه فاقبلوا منى بعضه فإن أتاكم منى خير فاقبلوه فإن السـيل إذا جاد[2] يُثْرى، وإن قل أغنى[3] وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة» ثم نزل.

٢ - لما ولى «النعمان بن بشير الأنصارى» «الكوفة» خطب فقال:

«أما بعد، فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما يهلك الرجال، وتسـفك الدمـاء وتغصب الأموال، إنى لا أقاتل من لـم يقاتلنى، ولا أثب على من لم يثب على، ولا أشاتمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالفرقة ولا الظنة، ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لى ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم فو الله الذى لا إله إلا هو لأضربنكم بسـيفى ما ثبـت قائمـه فى يدى، ولو لم يكن لى منكم ناصر، أما إنـى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل»[4].

وخطب عتبة بن أبى سفيان «بمصر» فقال:

«يا حاملى آلام أنوف رُكبت بين أعين إنى قلّمت أظفارى عنكم ليلين مَسّى لكم وسألتكم صلاحكم إذ كان فسـادكم باقيـا عليكم، فإما إذا أبيتم إلا الطعن على السـلطان والتنقص

(١) دبر أذنى: وراءها أى لم أصغ إليه.
(٢) جاد: كثر.
(٣) أغنى: أى عن المسألة.
(٤) تاريخ الأدب العربى/ تأليف الدكتور عمر فروخ – الجزء الأول ص ٣٨٦ ط دار العلم للملايين – بيروت.

للسَّلف، فو الله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف مــن ورائكــم، فكم من حكمة منا لم تعهــا قلوبكم، من بالمعصيــة، ولا أُويكم من مراجعة الحسنى إذا صرتم إلى التى هى أبرُّ وأتقى».

الخطة البتراء:

لما ولى «زياد» البصرة قدمها فى غرة جُمادى الأولى من سنة ٤٥هـ، (٢٠ تموز ٦٦٥م) والفســق فيها كثير فاشٍ ظاهر، (فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها) فقال: «أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغىّ الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشــتمل عليــه حلماؤكم، من الأمور العظــام التى ينبت فيها الصغير ولا يتحاشــى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وســدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية؟ ألم يكن فيكم نُهاة تمنع الغواة عن الدلج الليل، وغارة النهار؟ قــدَّ بنتم القرابة، وباعدتــم الدين أتعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس، كل امرىء منكــم يذب عن ســفيهه صنع مــن لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا. مــا أنتم بالحلماء وقد اتبعتم الســفهاء، فلم يزل ماكرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإســلام ثم أطرقوا وراءكم كنوســا من مكانس الريب حرام على الطعام والشــراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا»[1] ....إلخ.

وللخطبة بقية راجعها فى مظانها الرئيسية.

٢ - الخطابة الدينية:

خطب «مصعب بن الزبير» لما قدم «العراق» واليا عليها من قبل أخيه «عبد الله بن الزبير»، و«عبد الملك» يومئذ خليفة بالشــام صعد المنبر ثم قال «بســم الله الرحمن الرحيم» طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفســدين «وأشــار بيده نحو الشــام ثم قال (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وأشــار بيده نحو الحجاز ثم قال: «ونمكن لهم فى الأرض ونــرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» وأشــار بيــده نحو العراق ثم نزل.

(١) تاريخ الأدب العربى/ تأليف الدكتور عمر فروخ – الجزء الأول ص ٣٨٩ وما بعدها.

ومنها خطبة «عبدالله بن يحيى» «زعيم» «الأباضية» لما استولى على اليمن سنة ١٢٩هـ.

حمد الله ثم أثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ووعظ، وذكر، وحذر ثم قال:

«إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالا لا نبغى به بديلا، ولا نشترى به ثمنا قليلا، وحرمنا الحرام، ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا الله وإلى الله المشتكى، وعليه المعول، من زنى فهو كافر ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك فى أنه كافر فهو كافر – ندعوكم إلى فرائض بينات، آيات محكمات، وآثار مقتدى بها ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد الوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والولاية ولاية الله، والعداوة لأعداء الله».

الحوار:

هو ذلك الفن النثرى الذى يشبه المفاخرات والمنافرات الجاهلية من حيث قيامها على العصبية والنعرة القبلية وهذا اللون من الكلام قد ظهر فى العصر الأموى أقرب ما يكون إلى لغة الخطبة نتيجة لكثرة الأحزاب السياسية والفرق الدينية والآراء المختلفة، ولحرية الرأى التى سادت فى هذه الفترة دخل كبير فى ظهوره ظهورا ملأ الأسماع، وامتلك القلوب لما فيه من القدرة البيانية، فهو فن قديم ظهر فى ثوب جديد، واسم جديد لأن الاسم القديم لا يتفق مع نهى الدين عن تفاخر الجاهلية ودعوة العصبية.

ولذلك لما ظهر الإسلام توارت هذه المفاخرات ما عدا بصيصا فى صدر الإسلام – لقوة الوازع الدينى وصرامة القائمين على أمره مع قلة الخلاف السياسى حتى إذا ما تملك الأمويون وأحيوا العصبية ظهر هذا الفن من جديد وأصبح فرعا من فروع الأدب ذا منزلة وذا خطر ففيه يناجى القائل الفكرة مستعملاً البديهة حريصا على إفحام الخصم ونقض القول ولقد فتح «معاوية» الباب على مصراعيه إذ كانت سياسته قائمة على التغاضى عن القول، والتحلم إزاء التثريد فهو القائل «إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا» وهو القائل أيضا: «إن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتف جعلتها تحت قدمى، ودبر أذنى».

والحوار يعتمد على مواتاة البديهة، وإسعاف الخاطر أكثر من اعتماده على الروية والتأنق لأنه فى أكثر أحواله وليد الساعة، وعفو البديهة فلا فرصة فيه للتجيد والتنميق.

أبرز ما يميز المحاورات عدة خواص:

١ – اعتمادها على الإيجاز مع قوة العبارة، والمهارة فى التصوير.

٢ – قلب حجة الخصم عليه كما ترى فى حوار «ابن عباس، ومعاوية»، أو قلب الأوضاع قلبا فكاهيا كما فى حوار الغضبان مع الحجاج أو قلبا مبنيا على التعريض كما فى حوار «عقيل ابن أبى طالب» ومعاوية إذ أراد «معاوية» من «عقيل» أن يلعن عليا فلعن «معاوية» بطريق خفى.

٣ – حسن التخلص كما تخلص «الأحنف» من معاوية بقوله:

«أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت» كما تخلص «عقيل» من لعن «على»، وكما تخلصت الخارجية من الحجاج على أن الحوار الواحد يصطبغ بصبغة واحدة من هذه الخواص وقد يصطبغ باثنتين أو أكثر.

وإليك أمثلة من الحوارات توضح ما قلناه:

تحاور «عبد الله بن عباس» نائبا عن «على بن أبى طالب» مع الخوارج:

ابن عباس: ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين؟

الخوارج: قد كان للمؤمنين أميرا فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان فليتب بعد إقراره بالكفر نَعُد له.

ابن عباس: لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانَه شكٌّ أن يُقرَّ على نفسه بالكفر.

الخوارج: إنه حكَّم.

ابن عباس: إن الله عز وجل – قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل «ويحكم به ذوا عدل منكم» فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين؟».

الخوارج: إنه قد حُكم عليه فلم يَرْضَ.

ابن عباس: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما.

الخوارج: – بعضهم لبعض – لا تجعلوا احتجاج قريش حجة فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥٨]. وقال عز وجل فيهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [سورة مريم: آية ٩٧].

خطبة الحسن بن على بعد وفاة أبيه

خطب الحسـن بن على ﵁ بعد وفاة أبيه فنعاه فقال: «لقد قتلتم الليلة رجلاً فى ليلة نزل فيها القرآن، وفيها رفع عيسـى بن مريم عليه السـلام، وفيها قتل «يوشـع بن نون» فتى موسـى عليهما السـلام، والله ما سـبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه فى السرية، وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، ولله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه أراد أن يبتاع بها خادما لأهله، ثم خنقته العَبْرة فبكى وبكى الناس معه، ثم قال:

«أيها الناس: من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ أنا البشير بن البشير أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهـل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [سورة الشورى: آية ٢٣]. فلما انتهـى إلـى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن العباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة! فبايعوه ثم نزل عن المنبر.

خطبة الحسن بن على فى الحث على الجهاد

«أمـا بعد، فـإن الله كتب الجهاد على خلقه، سـماه كُرْها ثم قـال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: آية ٤٦]. فلستم أيها الناس نائليـن مـا تحبون إلا بالصبر على مـا تكرهون، بلغنى أن «معاويـة» بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة، حتى ننظر وتنظروا ونرى وتروا».

وإنـه فـى كلامه ليتخوف خِذلان الناس له - فسـكتوا، فما تكلم منهم أحد ولا أجابه بحرف، فلما رأى ذلك «عدى بن خاتم» قام فقال:

مقال «عدى بن حاتم»:

«أنا ابن حاتم، سبحان الله! ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم! أين خطباء مُضَرَ الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدَّعة، فإذا أجدّ الجِدّ راوغوا كالثعالب أما

تخافون مقت الله! ولا عيْبها وعارها! ثم استقبل «الحسن» بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره، ووفقك لما تحمد وروده وصدوره قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت ورأيت، وهذا وجهى إلى معسكرى فمن أحب أن يوافينى فليواف» ثم مضى لوجهه إلى النخيلة وقام ثلاثة آخرون من أصحاب «الحسن» فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم، وكلموا، «الحسن» بمثل كلام «عدى بن حاتم» فقال لهم صدقتم رحمكم الله، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيرا، ثم نزل، وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج، وسار «الحسن» فى عسكر عظيم وعدة حسنة.

خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى «الحسن» رضي الله عنه تفرق الأمر عنه، بعث إلى «معاوية» يطلب الصلح، فبعث «معاوية» إليه رسولين، قدما عليه بالمدائن، فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف فى أشياء اشترطها – ثم قال «الحسن» فى أهل العراق فقال:

«يا أهل العراق إنه سخى ينفس عنكم ثلاث»:

«قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى».

رد الحسن بن علىّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين – رضى الله عنهما – جالسان تحت المنبر، فذكر عليًّا عليه السلام فنال منه، ثم نال من «الحسن» فقام «الحسين» ليرد عليه فأخذه «الحسن» بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر عليًّا: أنا الحسن وأبى على، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمى «فاطمة» وأمك «هند» وجدى رسول الله ﷺ وجدك حرب وجدتى خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أخملنا ذكرا وألأمنا حسبا، وشرنا قديما، وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقاً: فقال طوائف من أهل المسجد آمين.

خطبة له فى عهد خلافته

ومن خطبه رضي الله عنه فى أيامه فى بعض مقامات أنه قال:

«نحن حزب الله المفلحون، وعترة رسول الله ﷺ المقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين الذين خلفهما رسول الله ﷺ والثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شىء

- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والمعول عليه فى كل شىء، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإطاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة: فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول» (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان إنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم: «لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنى جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون» تتلقون الرياح أزُرا وللسيوف جزرا، وللعمد حظا، وللسهام غرضا، ثم: (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا).

خطبة أخرى له

ومن خطبة رضي الله عنه:

«اعلموا أن الحلم زين، والوقار مودة، والصلة نعمة والإكثار صَلَف، والعجلة سفه، والسَّفه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة».

خطبة «عابس بن أبى شيب الشاكرى»

فقام «عابس بن أبى شيب الشاكرى» فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإنى لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما فى نفوسهم، وما أعرك منهم، والله أحدثك عما أنا موطن نفسى عليه والله لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفى دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله، فقام «حبيب بن مظاهر الفقسعى» فقال:

«رحمك الله قد قضيت ما فى نفسك بواجز من قولك» ثم قال: «وأنا والله الذى لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه» وقال غيرهما مثل قولهما.

فبلغ ذلك «النعمان بن البشير» فخرج فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

خطبة النعمان بن بشير

«أما بعد، فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال».

وكان حليما ناسكا يحب العافية، قال: «إنى لا أقاتل من لم يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على، ولا أشاتمكم، ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالفرقة»[1] ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لى ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فو الله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمة فى يدى ولو لم يكن لى منكم ناصرة أما إنى لأرجو أن يكون مَنْ يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل.

فقام إليه «عبد الله بن مسلم بن سعيد الحرمى» حليف بنى أمية فقال:

«إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشم، إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك لرأى المستضعفين» فقال:

«أن أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأغرين فى معصية الله» ثم نزل.

وكتب «عبد الله بن مسلم» وغيره إلى «يزيد» أن يبعث إلى الكوفة رجلا قويا غير «النعمان»، فبعث «عبيد الله بن زياد» وكان على البصرة – وضم إليه الكوفة، فسار إليها فلما نزل القصر نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم.

خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله» ولانى مصركم وثغركم، وأمرنى بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى مسامعكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطى وسيفى على من ترك أمرى وخالف عهدى، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد».

ثم ترك فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا، وبلغ ذلك «مسلم بن عقيل» فخرج من دار المختار، حتى انتهى إلى دار «هانئ بن عروة المرادى» لائذا به، ونمى خبره إلى «ابن زياد» فبعث إلى «هانئ» فجاءه فأمره أن يأتيه بمسلم فقال: لا والله لا أجيبك به أبدا أنا أجيئك بضيفى تقتله! وطال بينهما اللجاج فى ذلك، فضربه «ابن زياد» بالقضيب، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده، حتى كسر أنفه، وسَيَّلَ الدماء على ثيابه، ونثر لحم خديه على لحيته، حتى كسر القضيب، ثم أمر بحبسه.

---

(١) القرفة: التهمة، وقرفه بالشئ، اتهمه.

خطب أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هانئا وحبسه، خشى أن يثب الناس به فخرج فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد أيها الناس، فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا، ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا، وتجفوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك وقد أعذر من أنذر، وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب «هانئ» وحبسه، فأمر أن ينادى فى أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا وأقبل نحو القصد، فتحرز فيه ابن زياد وغلق الأبواب وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه، ثم قال: «أشرفوا على الناس، فمنوا أهل الطاعة الزيادة والكرمة وخوَّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم فصول الجنود من الشام إليهم».

خطبة «عبيد الله بن زياد»

ولما انقضت جموع «ابن عقيل» خرج «عبيد الله بن زياد» إلى المسجد، وأمر فنودى «ألا برئت الذمة من رجل صلى العتمة إلا فى المسجد» فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس، فصلى بهم، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإن «ابن عقيل» السفيه الجاهل، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه فى داره، ومن جاء به فله ديته، اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا.

يا حصين بن نمير، ثكلتك أمك إن صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتنى به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة، ما بعث مراصده على أفواه السكك وأصبح غدا واستبد الدُّور، وحبس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل ثم نزل.

وأصبح ابن تلك العجوز التى أوت مسلما، فدل على مكانه، فبعث ابن زياد محمد بن الأشعث فى ستين أو سبعين رجلاً تأتى به وأمره به، فصعد إلى أعلى القصر، ورب عنقه فهوى رأسه إلى الأرض، وأتبع جسده رأسه ثم أمر بهانئ بن عروة، فأخرج إلى السوق، فضربت عنقه.

وكان «مسلم» حيث تحول إلى دار هانئ، كتب إلى «الحسين» إنى قد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً فعجّل الإقبال، حتى يأتيك كتابى فإن الناس كلهم معك ليس لهم

فى آل معاوية رأى ولا هوىً فســار الحســين من مكة» فى ٨ من ذى الحجة ســنة ٦٠ هـ متوجهًا إلى الكوفة وهو لا يعلم بحال مسلم.

خطب عبيد الله بن زياد

ولما نمى إلى «عبيد الله بن زياد» خبر الكتاب الذى كتبه «الحســين» رضي الله عنه إلى أشراف البصرة يستنصرهم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد، فو الله ما تقرن بى الصعبة، ولا يقعقع لى بالشنان وإنى لنكل لمن عادانى، وسُمٌّ لمن حاربنى، أنصف القارة من راماها».

يا أهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة وأنا غاد إليها الغداة، وقد اســتخلفت عليكم «عثمان بن زياد بن أبى ســفيان» وإياكم والخلاف والإرجاف، فو الذى لا إله غيره لئــن بلغنى عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تســتمعوا لى، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشــاق أنا ابن زياد، أشــبهته من بين من وطئ الحصى، ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم».

خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة:

أيها الناس: لا يغرنكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن الموادع والله لئن خرج علينا خارج لنقتله، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا، لنأخذن الوالد بولده، والمولود بوالده، ولنأخذن الحميم بالحميم والعريف بما فى عرافته، حتى يدينوا الحق، ويذلوا للطاعة.

رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه «المسيب بن نجبة» فقطع عليه منطقه ثم قال:

«يا ابن الناكثين: أنت تهددنا بســيفك وغشمك؟ أنت والله أذل من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك، والله إنى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولا ســديدا، إى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك وقابلا لك».

فقال «إبراهيم بن محمد بن طلحة»: إى والله ليقتلن وقد أوهن ثم أعلن.

دعاؤه وقد صحبته الخيل

ولما صحبته الخيل رفع يديه فقال:

«اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولىّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة».

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضا

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال:

«يا أمير المؤمنين، لا تدعنَّ مروان، يرمى جماهير قريش بمشاقصه ويضرب صفاتهم بمعوله، أما والله لولا مكانك لكان أخفَّ على رقابنا من فراشه، وأقل فى أنفسنا من خشاشه، وايم الله لئن ملك أعنة الخيل تنقاد له، لتركبن منه طبقا، تخافه».

فقال معاوية: إن يطلب مروان هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن يتركه يتركه لمن فوقه، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند ملمة يسومكم خسفا، ويسوقكم عسفا».

فقال «ابن الزبير»: إذن والله يطلعه عقال الحرب بكتائب تمور كَرِجْل الجراد، حافاتها الأسل، لها دوىّ كدوى الريح تتبع غطريفا، من قريش لم تكن أمه راعية ثلة».

فقال «معاوية»: «أنا ابن هند، أطلقت عقال الحرب فأكلت ذروة السَّنام، وشربت عنفوان المكرع، وليس للأكل بعدى إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرَّنق» فسكت ابن الزبير.

خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لما قتل «الحسين» عليه السلام – قام «عبد الله بن الزبير» – فى أهل مكة وعظَّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامَّة، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه – وصلى على محمد ﷺ:

«إن أهل العراق غدر وفجر إلا قليلا، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإنهم دعوا حُسَيْناً لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: «إما أن تضع يدك فى أيدينا، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سِلْما، فيمضى فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه

قليل فى كثير – وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدا. أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسينا، وأخرى قاتل الحسين لعمرى لقد كان من خلافهم إيـاه وعصيانهـم ما كان فـى مثله واعظ وناءٍ عنهم، ولكنه حُم نـازل، وإذا أراد الله أمراً لن يُدْفَع.

أفبعـد «الحسـين» نطمئن إلى هولاء القومِ، ونصدق قولهـم، ونقبل لهم عهدا؟ لا والله نراهـم لذلك أهلا، أمـا والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيـرا فى النهار صيامه أحق بمـا هـم فيه وأولى به فى الدين والفضل، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشـية الله الحداء، ولا بالصيام شـراب الحرام، والمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد (يعرض بيزيد) فسوف يلاقون غيّاً فثار إليه أصحابه، فقالوا له:

أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حُسين ينازعك فى هذا الأمر وقد كان يبايع الناس سرا، ويظهر أنه عائذ بالبيت.

خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدم وفد من العراق على «عبد الله بن الزبير» فأتوه فى المسـجد الحرام فى يوم جمعة فسـلموا عليه، فسألهم عن «مصعب» أخيه، وعن سيرته فيهم فقالوا: أحسن الناس سيرة، وأفضـاه بحـق، وأعدله فى حكم، فصلى «عبد الله» بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

قـد جربونـى ثـم جـربونى   مـن غلـوتيـن ومـن المئيـن
حتـى إذا شـابوا وشيبونى   خَلّـو عِنـانـى ثـم سيَّبونـى

أيها الناس: «إنى قد سألت هذا الوفد من أهل العراق، عن عاملهم» مصعب بن الزبير، فأحسـنوا الثناء عليه، وذكروا عنه ما أحب، ألا إن مصعبا أطبى القلوب، حتى ما تعدل به، والأهواء حتى ما تحول عنه، واسـتمال الألسـن بثنائها، والقلوب بنصحها، والنفوس بمحبتها فهو المحبوب فى خاصته المحمود فى عامته، بما أطلق الله به لسانه من الخير، وبسط يده من البذل» ثم نزل.

خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل «عبد الملك بن مروان» مصعب بن الزبير (سـنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله إلى «عبد الله بن الزبير» أضرب عن ذكره أياما حتى تحدث به إماء مكة فى الطريق، ثم صعد

المنبر فجلس عليه مليا لا يتكلم، والكآبة على وجهه، وجبينه يرشح عرقا، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: ما له لا يتكلم، أتره يهاب المنطق؟ فو الله إنه لبيب الخطباء. قال: لعله يريد أن يذكر مقتل «مصعب» سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وغير ملوم، ثم تكلم فقال:

«الحمد لله الذى له الخلق والأمر، ومُلك الدنيا والآخرة، ويؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء فإنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، أما بعد، فإنه لن يعز الله مَنْ كان الباطل معه، وإن كان معه الأنام طرا، ولم يذل من كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق، بل الغدر والشقاق، فساءنا وسرنا».

أتانا أن «مصعبا» قتل رحمة الله عليه ومغفرته، فأما الذى أحزننا من ذلك فإنه لفراق الأخ الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمة عند المصيبة ثم بدعوى من بعد ذوى الرأى إلى جميل الصبر، وكريم العزاء وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له، وأنه عز وجل – جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى.

أسلمه الطغام، الصم الآذان، أهل العراق، إسلام النعم المخططمة وباعوه بأقل الثمن الذى كانوا يأخذون منه، فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين.

إنا والله لا نموت حتف آفاقنا، ولكن قصفًا بالرماح وموتًا تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط، ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشر البَطِر وإن تدبر عنى لم أبكِ عليها بكاء الخرق المهين، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ثم نزل.

خطبة له أخرى

وقال الجاحظ: لما جاء قتل أخيه مصعب قام خطيبًا بعد خطبته الأولى، فقال: «إن مصعباً قدم أيْرَه ، وأخبره خبره، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك حلبة أهل الشام حتى غشيته فى داره، ولئن هلك مصعب فإن فى آل الزبير خلفًا منه».

خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضا أنه لما بلغه قتل «عبد الملك بن مروان» «عمرو بن سعيد الأشدق» قام خطيبا فقال: إن أبا ذِبَّان قتل ليطم الشيطان، كذلك نولىّ بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون.

خطبته يوم قتله

وخرج من عندها (أمه أسماء بنت أبى بكر) فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس إن الموت قد تغشاكم سحابه، وأحدق بكم ربابه، واجتمع بعد تفرق، وارجحن بعد تمشق، ورجس نحوكم رعده وهو مقرع عليكم برقه وقائد إليكم البلايا، تتبعها المنايا فاجعلوا السيوف لها غرضا، واستعينوا عليها بالصبر وتمثل بأبيات ثم اقتحم يقاتل وهو يقول:

وقد جدّ أصحابك ضرب الأعناق   وقامت الحروب لها على ساق

خطبة مصعب بن الزبير

بعث «عبد الله بن الزبير»، أخاه مصعبا واليا على البصرة سنة ٦٧ هـ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص: الآيات ١ – ٤]. وأشار بيده نحو الشام ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وأشار بيده نحو الحجاز ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأشار بيده نحو العراق.

خطبة «معاوية» بالمدينة عام الجماعة

قدم «معاوية» المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش.

فقالوا: «الحمد لله الذى أعز نصرك، وأعلى كعبك، فما رد عليهم شيئا حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإنى والله ما وليتها جد علمتها منكم، ولا مسرة بولايتى، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة وأردتها على عمل «عمر» فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها على سنيات «عثمان» فأبت علىّ، فسلكت

بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدونى خيركم فإنى خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يثرى ، وإذا قل أغنى ، إياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ثم نزل.

خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى ﷺ ثم قال : «أما بعد ، أيها الناس إنا قد قدمنا عليكم ، وإنا قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعا كل الناس فإن كانت محمدة فلابد من مذمة فلوما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتى أخفيت أوبقت وإن ذكرت أو ثقت» ثم نزل.

خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا أهل المدينة ، إنى لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق ، وفى كلّ بلاغ ولا مقام على الرزِّية».

عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر

دخل ابن الزبير على أمه «أسماء بنت أبى بكر» ، فى اليوم الذى قتل فيه وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

«يا أمه : خذلنى الناس حتى ولدى ، وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك؟ فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعَّب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنتُ على

حــق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودُك فى الدنيا؟ القتل أحسن والله لضربة بالسيف فى عزّ، أحبّ إلىّ من ضربة بسوطٍ فى ذل».

قال: إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى، قالت: يا بنى إن الشــاة لا يضرها ســلخها بعد ذبحها.

فدنا منها وقبل رأســها، قال: هــذا والله رأيى، والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله، أن تستحل حرمه ولكننى أحببت أن أعلم رأيك، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى فانظرى يا أمه، فإنى مقتول من يومى هذا، فلا يشــتد حزنك وســلمى لأمر الله ، إن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة، ولم يجر فى حكم لله، ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم عمالى فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شــىء آثر عندى من رضــا ربى، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفســى – أنــت أعلم بى ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى، فقالت أمه: إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى، وإن تقدمتك ففى نفسى حرج حتى أنظر إلام يصير أمرك قال: يا أمه جزاك الله خيراً فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبدا فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة وقلة وبره بأبيه وبى، اللهم قد ســلمته لأمرك فيه، ورأيت بما قضيت فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ثم ودعها وخرج.

خطب عمر بن العزيز توفى سنة ١٠١ هـ

أولى خطبه:

قــال العُتْبــى: أول خطبة خطبها عمر بــن العزيز – رحمه الله قولــه: أيها الناس، أصلحوا ســرائركم، تصلح لكم علانيتكم، وأصلحــوا آخرتكم تصلح دنياكم، وإنَّ امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمعرق فى الموت.

خطبة له بالمدينة

وفى ســنة ٨٧ هـ ولّى الوليد عمر بن العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشــرة من فقهائها، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن قطع أمرا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأشهد الله على من بلغه ذلك إلا بلّغنى» فخرجوا يجزونه خيرا.

خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله - عز وجل - ثم قال:

«يا أيها الناس، إنى وجد هذا القلب لا يعبر عنه إلا اللسان ولعمرى - وإن لعمرى منى لحقًّا - لوددت أنه ليس من الناس عبد ابتلى بسعة إلا نظر قطيعا من ماله، يجعله فى الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل، بدأت أنا بنفسى وأهل بيتى، ثم كان الناس بعد».

ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل: لولا سنة أحييتها، أو بدعة أمتها، لم أبال أن لا أبقى فى الدنيا إلا فواقا».

خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما يراد الطبيب للوجع الشديد، ألا فلا وجع أشد من الجهل، ولا داء أخبث من الذنوب، ولا خوف أخوف من الموت» ثم نزل.

خطبة عطاء بن أبى صيفى الثقفى

وروى المسعودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه أم يعزونه، فقام «عطاء بن أبى صيفى» فقال:

«السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أصبحت وقد رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ومنحت هبة الله وقد قضى «معاوية» نحبه فغفر الله له ذنبه، وأعطيت بعده الرياسة، ووليت السياسة فاحتسب، عند الله أعظم الرؤية، واحمده على أفضل العطية».

خطبة غيلان بن مسلمة الثقفى

وروى الجاحظ: أنه لما توفى «عبد الملك»، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرونِ أيهنئونه أم يعزونه، فأقبل «غيلان بن مسلمة الثقفى»، فسلم عليه، ثم قال:

«يــا أمير المؤمنين أصبحت وقد رزئت خير الآباء، وســميت خير الأســماء، وأعطيت أفضل الأشــياء، فعظم الله لك على الرزية الصبر، وأعطاك فى ذلك قوافل الأجر، وأعانك على حســن الولاية والشــكر، ثم قضى عبد الملك بخير القضية، وأنزله بأشــراف المنازل المرضية وأعانك من بعده على الرعية».

خطب الحجاج بن يوسف الثقفى

خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣ هـ

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير، ارتجت مكة بالبكاء فصعد المنبر فقال:

ألا إن ابــن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واســتكنّ بحرم الله، ولو كان شــئ مانعا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة.

خطبته بعد قتل ابن الزببر

وصعــد الحجاح بعد قتله ابن الزبير متلثما، فحط اللثــام عنه ثم قال: موج ليل التطم، وانجلــى بضوء صبحه، أهل الحجاز، كيف رأيتمونى؟ ألم أكشــف ظلمة الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن ســنن أقمناكم عليه فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار وأقيم من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار» ثم نزل وهو يقول:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها   وإن شمـرت عـن ساقهـا الحـرب شمـرا

خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهيأ لغزو السند

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم وسار إلى السند سنة ٩٣ هـ خطب الناس فقال:

إن الله قد فتح لكم هذه البلدة فى وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السُّغْدُ شاغرة برجلها، قد نقضوا العهد الذى كان بيننا ومنعونا ما كنا صالحْنا عليه طرخون، وصنعوا به ما بلغكم

وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الفتح: آية ١٠].

فسيروا على بركة الله، فإنى أرجو أن يكون خوارزم والسُّغد كالنضير، وقريظة قال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ [سورة الجن: آية ٢٨].

خطبة يوسف بن عمر الثقفى

قام خطيبا فقال:

اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمل أملا لا يبلغه، وجامع مالا لا يأكله ومانع عما سوف يتركه، ولعله من باطل ما جمعه، من حق منعه أصابه حراما، وأورثه عدوا فاحتمل إصره، وباء بوزره وورد على ربه آسفا لاهفا، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين...

■■■

الكتابة

الكتابة الأدبية

استجد من أمور الدولة وشئونها فى ذلك العصر ما استدعى وجود أنواع من الكتابة الأدبية، وقد شملت الكتابة ألوانا كثيرة منها المكاتبات بين الخلفاء وولاتهم وعمالهم، ومنها العهود والوصايا، ومنها الرسائل التى كان يتبادلها العلماء والوعاظ، فضلا عن الرسائل الإخوانية التى كان يتبادلها الأصدقاء ومن إليهم.

ومن أهم سمات الكتابة فى ذلك العصر:

- انتقاء الألفاظ، والبعد عن الوحشى الغريب.
- التزام السمع فى بعض الأحيان.
- الابتداء بحمد الله والثناء عليه، والختام بالسلام وتضمين بعض آيات القرآن أو الحديث أو الشعر.
- ترتيب الأفكار وتسلسل المعانى.

وقد عرف فى هذا العصر جماعة من الكتاب منهم عبد الحميد الكاتب، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وقد جعل هذان إلى ولى عهد الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد[1] وأمثالهما من الكتابة صنعة لها أصولها وقواعدها المقننة.

نموذج للكتابة الأدبية:

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه معاتبا له:

أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة،ثم أعقبتنى بجفاء عن غير جريرة، فأطمعنى أولك فى إرخائك، وأيأسنى أخرك من وفائك، فلا أنا فى اليوم مجمع لك إطراحا، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

أولا: الكتابة:

كانت الكتابة قبل هذا العصر تؤدى بلغة أهل المِصْر وهى اللغة الفارسية فى فارس والعراق والرومية بالشام، واللغة القبطية فى مصر واستمرت كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان

---

(١) انظر التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٦، وما بعدها.

حتى تم تعريب الدواوين وكان القائم على ديوان الشام ســرْجُون بن منصور الرومى فحلّ محله سليمان بن سعد، وكان القائم على ديوان مصر أنتاش القبطى فحل محله ابن يربوع القرارى بأمر عبدالله بن عبد الملك بن مروان وبهذا العمل العظيم فى تلك الأقاليم الشاسعة طـوّق عبــد الملك بن مروان جيد العربية بمنة لا تمحى ومكرمة لا تزول، وإن قطرة واحدة إلى كتاب الدواوين فى هذا العصر لتؤكد لنا قيمة الفتح، وعظمة ذلك فى التعريب.

ثانيا: كتابة الرسائل:

لقد ســارت الكتابة فى العصر الأموى مســيرها أيّام الرسول ﷺ، وخلفائه حتى انتهى العصــر الســفيانى دون أن يحدث فيهــا جديد إلا ما كان عليه من إنشــاء معاوية بن أبى سفيان لديوان الخاتم ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مَخْتُوما لا يَدْرِى حامله ما فيه، ولا يستطيع أن يغيره.

وســبب إنشــاء هذا الديوان على ما ذكره الفخرى فى كتابه «الآداب السّــلطانية»[1] أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه وهو واليه على العراق بمائة ألف درهم، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حســابه إلى معاوية أنكر ذلك، ثم تبين حقيقة الأمر فاســتعاد المائــة، وأمر بوضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعــات تصدر منه مختومة، فأما كتابة الرســائل وهى التى تهمنا فى هذا المضمار فقد كان لكل خليفة كاتب رســائل يتولى الخليفة بنفســه إملاء ما عليه، لذا كانت تفيض ســحرا وبلاغة، ونصاعة بياض، وروعة وجمــالا، حيث إن الخلفاء أنفســهم كانوا أدباء وعلماء أخذوا بناصية الفصاحة وأمســكوا بتلابيب البلاغة لذا كتاباتهم غاية فى الحسن والجمال والروعة.

ولم يظهر للكتاب شــخصية فيما يصدرون إلا فى عهد ســالم مَوَلْىَ هشام بن عبد الملك ابن مــروان وكاتبه على الرســائل إذ كان ينوب عن الخليفــة فى كثير منها، ويذيّل بعض الرســائل بما يدل على أنه منشــئها وبهذا بدأت تظهر على يديه صناعة الكتابة الإنشائية ذات الصبغــة الفنية، والنظم، والقيود ولكنها لــم تؤت أكلها، ولم تعط ثمارها إلا على يد تلميذه، وزوج قريبته عبد الحميد بن يحيى المعروف بـ عبد الحميد الكاتب.

---

(١) راجع الآداب السلطانية للفخرى.

أُطر الكتابة الإنشائية:

والكتابة الفنية الإنشـائية مرت بطورين، الطور الأول من قيام الدولة إلى عهد الملك، وكانت الكتابة فيه تسـير على نهجها فى صدر الإسـلام من السـهولة والإيجاز والوضوح وعـدمٍ التكلـف، وخلوها من عبارات التفخيم واحتذائها حـذو القرآن، وكان أغلبها يملى ارتجالاً إملاءتهم كأحاديثهم، ابنة السـليقة، وربيبة الغريزة خالية من كل ما هو متكلّف مصنّع، وعلى منوال الخطابة نسـجت الكتابة، على طريق الخطباء مشـى الكتاب، وذلك لأن الرسـائل والخطب متشـاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه فألفاظ الخطابة تشـبه ألفاظ الكتابة فى السـهولة والعذوبة والفرق بينهما أن الخطبة يشـافه بها بخلاف الرسالة ويمكن جعل الرسالة خطبة والخطبة رسالة فى أيسر كلفة[1] والطور الثانى من أيام الوليد إلى آخر حياة الدولة قيل إن الوليد أول من جود القراطيس، وجلل الخطوط، وفخم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد فإنهما جريا فى المكاتبات على طريقة السلف.

والكتابة فى هذا الطور تدرجت فى التأنق والصنعة والإطناب وإشـراق البيان، وحسـن الديباجـة حتى صارت صناعة فنية لها أصول وقواعد، وكان زمامها بأيدى الموالى الذين دخلوا فى الإسلام واختلطوا بالعرب فى الأقاليم الإسلامية الأولى كالشام والحجاز والعراق أو دخل عليهم الإسـلام فى ديارهم كآسيا الصغرى، ومصر وإيران، وخراسان فجمعوا بين اللسـان العربى والأعجمى والثقافتين الإسـلامية والأعجمية، وكان هذا الخليط أو المزيج أدبـا طريفـا تلمح فيه معالم النفس الفارسـية أو اليونانية على رغم هذا الأسـلوب العربى الطاغى كسـالم مولى هشـام بن عبد الملك، وأسـتاذ عبد الحميد الكاتب وأحد الواضعين لنظام الرسائل وصنعة الكتابة وكجيلة بن سالم مولى هشام أيضا، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة فيقال بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابـن العميد نعم إن لسـالم الفضل الأول بخاصة إنه كان يعـرف اليونانية ونقل عنها إلى العربية شيئا من رسائل أرسطو إلى الإسكندر فساعده ذلك على ما عانى من التجديد وجعل النـاس يدونـون له مجموعة كبيرة دون غيره قال ابن النديـم عنها إنها تبلغ مائة ورقة ثم زاد فيها تلميذه عبد الحميد وأذاعها فضرب المثل ببلاغته واعتبر شيخ الكتاب ورئيسهم، ونسـب إليه ابن النديم مجموعة رسـائل قيل إنها تبلغ ألف ورقة ومما ساعد عبد الحميد

---

(١) الصناعتين/ لأبى هلال العسكرى.

فوق ما تقدم صحبته لابن المقفع الذى كان يجيد الفارسية فجمع عبد الحميد إلى العربية ثقافة الفرس بسبب صحبته «لابن المقفع».

وهو جدير بأن يكون شيخ الكتاب فقد استطاع أن يبتكر فى هذه الصناعة أمورا من أهمها:

١ – الإيجاز فى غير إخلال والإطناب فى غير إملال حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات، ولقد روى أنه كان يكتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة لبنى العباس كتابا يستميله فيه، وقال لمروان كتبت كتابا منى إذا قرأه بطل تدبيره فإن يك ذاك وإلا فالهلاك وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير فلما ورد الكتاب على أبى مسلم أمر بإحراقه ولم يقرأه وكتب على جذاذة منه:

محا السيف أسطار البلاغة ... عليك ليُوث الغاب من كل جانب

وليس فى هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب مع ما عرف من تفننه فى بلاغته، وكان لقدرته على الإيجاز والإطناب يتخير لكل منهما الموضع المناسب فيطنب فى الأخبار بالفتوح والحث على الجهاد والوعد والوعيد ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء.

ومن إيجازه قوله موصيا بشخص حق موصل كتابى إليك كحقه إذ جعلك موضعا لأمله، ورآنى أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله، وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى عبدا أسود فكتب إليه لو وجدت لونا شرّا من السواد وعددا أقل من الواحد لأهديته.

٢ – أطال فى الفواتح والخواتيم بما يعد جديدا فى هذا العصر كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة، وصور مختلفة وكالبدء بسم الله، ثم إتباعها بالحمد لله فاصلاً بينهما بأما بعد وفى الخواتيم التى كانت مقصورة على السلام أطال أيضا.

٣ – قد أكثر من الرسائل الإخوانية ويراد بها تلك الرسائل التى تكون بين الناس فى عتاب أو شوق أو شكر أو استمناح أو تعزية أو تهنئة ....إلخ.

وقد كانت قليلة ضئيلة ولكنها على يديه تحولت إلى رسائل أدبية متعددة الغرض متشعبة الفنون.

٤ – طرق موضوعات جديدة، وعالج فيها معانى لم تعهد للكاتب قبله كرسالته فى النهى عن الشطرنج فقد كان فيها قويَّ الحجة ناصعَ البرهان، ومثل رسالته التى أودعها نصائحه إلى أبنائه الكتاب، والحق أن عبد الحميد قد تطور النثر على يديه تطورا واسعا

وطـرق، موضوعـات مختلفة من الإخـاء وقيادة الحروب والصيد وأجـرى قلمه فى وصف الخيل والسـلاح، ولعل صلته بالثقافة الفارسية واليونانية وإلمامه بالثقافة العربية الواسعة كل ذلك جعله بحق شيخ الكتاب.

وبعد، فإن الناظر فى رسـائل عبد الحميد يرى الرجل واسع التفكير مستقصيا للمعانى مرتبا لها متناولا لسـهلها وصعبها وجد الكتابة مقيدة ففك قيودها، ومتعثرة فأجراها على أذلاها ومنقطعة النفس فأطال من أنفاسـها ومد من روحها كما حافظ على فضيلة السـابقين من الجزالة والأحكام وزاد عليها الإسـباغ وإطالة الذيل ولقد تميز عبد الحميد فى أسـلوبه ومعانيـه وألفاظه فالألفاظ منتخبة وليس فيها توعر ولا غريب وحشـى وإنما فيها العذوبة والحلاوة، والمعانى غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة وهو يعنى بالترادف فى أسلوبه ترادفا ينتهى به إلى ازدواج واضح مضيفا إلى ذلك حِلى من طبقات وتصويرات تضفى إلى أسلوبه روعة بيانية خلابة، والكلام عن عبد الحميد لا ينتهى ومحل إيفائه هو الترجمة له لا ما نحن فيه.

نماذج الكتابة فى العصر الأموى:

١ - كتب «معاوية» إلى «على» يحاول أن يترضاه ويسـتميله ويأسـف على ما حدث بينهما من حروب:

أمـا بعـد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بناديك ما بلغَت لم يجنها بعضنا على بعض، وإن كنـا قـد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نرد به مـا مضى، ونصلح به ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمنى لك طاعة، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف.

وقـد والله رقَّت الأجنـاد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد منـاف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز، ويسترق به حر والسلام. فرد عليه على بن أبى طالب بقوله:

من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان:

أمـا بعـد، فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بناديك ما بلغت لـم يجنها بعضنا على بعض، وأنـا وإياك نلتمس منها غاية لم تبلغها بعد فأما طلبك منى الشـام فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وما استواؤنا فى الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك منى على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق

علــى الآخــرة وأما قولك نحن بنــو عبد مناف فكذلك نحن وليس أمية كهاشــم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو ســفيان كأبى طالب ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق وفى أيدينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام.

٢ – ومن أوجز الرسائل ما كتبه عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز:

أما بعد فإن الناس قد كثروا فى الإسلام، وخفت أن يقل الخراج فكتب إليه عمر:

«فهمت كتابك والله لوددت أن الناس كلهم أســلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا».

الكتابة العلمية:

قلنا فى الجزء الأول حينما تكلمنا عن النثر العلمى إن العصر الجاهلى والعصر الإسلامى لم يظفرا من النثر العملى بشــىء لانعدام الكتابة، وغلبة الأمية، وتأصل البداوة فى العصر الجاهلى وانشــغال العرب بالفتح والجهاد ونشــر الدين، وقمــع الفتن الداخلية فى العصر الإســلامى، فانقضــى العهــد الأول دون أن يدون كتاب إلا ما كان مــن أمر القرآن وظهور المصاحف على عهد عثمان.

ولكن لما دخل الأجانب ولهم عراقة ورسوخ فى العلوم تطورت فى هذا العصر الثقافات الدينيــة وقوامهــا القرآن الكريم وتفســيره وقراءتــه، والحديث الشــريف وروايته، والفقه والتشــريع والأدبية وقوامها الشعر والتاريخ والأخبار والأنساب، والعلمية الدخيلة وقوامها مســائل فى الطب والكيمياء والفلك والنجوم والمذاهب الفلســفية وإليك كلمة عن كل مظهر من هذه المظاهر.

المظهر الدينى:

قد تأسســت فى كل بلدة إسلامية مدرســة دينية عنيت بتفسير الذكر ورواية الحديث النبوى، وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع، وكان كثيرون من المتعلمين فى هذه المدارس يحرصــون على تدوين ما يســمعونه، وقد اشــتهر ابن عباس فى مكة بمــا كان يحار فيه مــن تفســير القرآن الكريم، وحمل عنه تفســيره نفر مــن التابعين أمثــال مجاهد وعطاء، تفسير الطبرى حمل تفسير ابن عباس ومن عاصره كابن مسعود وأبى بن كعب.

وما نشك من أن هذه التفاسير قد دونت وإلا فما وصلت إلى الطبرى وكذلك نال الحديث همــة بعض الصحابــة والتابعين فتردد بعضهم فى تدوينه، غير أن منهم من خشــى عليه

الضياع والنسيان، فعمد إلى كتابته ونحن لا نصل إلى عهد عمر بن العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث.

المظهر الأدبى:

كان من أوائل ما عنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم. ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار، ومن أشهرهم دغفل بن حنظلة المتوفى سنة ٧٠ هـ وله مجالس عند معاوية دونّت فى كتاب اسمه التضافر والتناصر وبجانب ذلك نجد القبائل تعنى بأخبارها فى الجاهلية وأشعارها فتدونها.

وتكاثر هذا التدوين فى الكوفة مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد أن يكثروا من رواية الشعر الجاهلى وكل ما يتصل به من أخبار وأيام.

وهناك أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامى كان يكتب ويدون من ذلك مايرويه الجاحظ فى الحيوان عن ذى الرّمة أنه كان يقول لعيسى بن عمر اكتب شعرى فالكتاب أحب إلى من الحفظ ..... إلخ.

■■■

فَنُّ النّقائض

فن النقائض:

النقائض مفردها نقيضة، والنقض إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، وفى الصحاح النقض هو نقض البناء والحبل والعهد.

والمناقضة فى القول أن يتكلم بما يتناقض معناه، والنقيضة فى الشعر ما ينقض به قال الشاعر:

إنى أرى الدهر ذا نقض وإمرار

أى ما أمر عاد عليه فنقضه، وكذلك المناقضة فى الشعر ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول، والنقيضة اسم يجمع على النقائض، ولذلك قالوا: نقائض جرير والفرزدق، ونقيضك الذى يخالفك.

والنقض: ما نقضت، والجمع أنقاض، ويقال انتقض الجُرْح بعد البرء، وانتقض الأمر بعد التئامه، وانتقض أمر الثغر بعد سده[1].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾[2].

والنقيضة قصيدة يرويها الشاعر على قصيدة لخصم فينقض معانيها عليه:

يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو، وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها.

يقول الأخطل من البحر البسيط على روى الراء المضمومة

خفوا القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غِيرُ

فأجابه جرير من البحر نفسه وعلى الروى ذاته:

قل للديار: سقى أطلالك المطر قد هجت شوقا وماذا ينفع الذِكَرُ

وقد تختلف أحيانا حركة الروى فى النقائض كقول الفرزدق من البحر الكامل على اللام المضمومة:

إن الذى سمك السماء بنى بيتا دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

(١) لسان العرب/ لابن منظور مادة نقض

(٢) سورة النحل آية رقم ٩٢.

فأجه جرير من البحر نفسه ولكن على اللام المكسورة:

لِمَن الديـــار كأنهــا لم تحـلَلِ بيـن الكنـاس وبين طلح الأعزل

وربما اشترك فى المناقضة بضعة شعراء فمن ذلك مثلاً قول الفرزدق يخاطب جريرا:

يا ابنَ المراغـة والهجاء إذا التقت أعنـــاقه وتمـاحـك الخصـمـــان

فقال جرير يرد على الفرزق:

لِمَـن الديار ببرقه الروحان إذ لا نبيـع زمـاننـا بزمـانِ

وقال الأخطل يرد على جرير أيضا:

بكــر الــعواذل يبتـدرن مـلامتـى والعـالـون فكلهـــم يلحـــانـــى

والمختار فى النقائض أن تكون طوالا، وفيها يفتخر الشــاعر بنفســه وبقومه، وبفضائل نفســه كالشعر والكرم والشجاعة ثم بأحساب قومه كالحروب التى انتصروا فيها، والعهود التى وفوا بها والمحاســن التى أتوها من الكرم والدفاع عن الأعراض والقيام بشــأن القبيلة وما إلى ذلك.

نشوء النقائض:

كانت النقائض فى العصر الأموى اســتمرارا للهجاء القبلــى فى الجاهلية وكان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين فينتصر شاعر لقومه أو لأحلاف قومه، فيرد عليه شاعر من هؤلاء، فيعود الأول إلى الرد عليه، ثم يلتحم الهجاء ويستطير، ولقد أذكى هذه النزعة فى الشعراء قيام الأحزاب وتقرب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومهم تكسبا للمال.

قيمة النقائض:

كانــت النقائض تمثل جانبا من العصور الأموى، ذلك الجانب المضطرب بالتنازع على الخلافة ما يســتنتجه ذلك التنازع من الأحوال: لقد دلت على أن الحمية الجاهلية ظلت ذات أثر فى النفوس حتى بعد أن انتشــر الإســلام، ولكن أثر الإسلام وأثر الحياة الجديدة كانا بارزين ظاهرين يزدادان مع الأيام اتســاعا ونفوذا إلى النفوس، ويمكننا أن نرى لقيمة النقائض خمسة أوجه:

الوَصَايا

الوصايا

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ، ويزيد غائب دعا معاوية مسـلم بن عقبة المرىّ، والضحاك ابن قيس الفهرى، فقال أبلغا عنى يزيد وقولا له:

يا بنى: إنى قد كفيتك الشَّدَّ والترحال، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء، أخضعت لـك رقـاب العرب، وجمعت لك ما لـم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجـاز، فإنهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهده، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فإنَّ عزل عامل أهونُ عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا ندرى علام أنت عليه منهم؟ ثم انظر أهل الشـام، فاجعلهم الشـعار دون الدثار، فإن رابـك مـن عدوك ريب فارمهم بهم، فإن أظفرك الله بهم، فاردد أهل الشـام إلى بلادهم، ولايقيمـوا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم، وإنى لسـت أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبـد الرحمـن بن أبى بكر فأما عبد الله بن عمر فرجل قـد وقذه الورع، وإذا لم يبق أحد غيـره بايعك، وأما الحسـين بن على فإنه رجل خفيـف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه، فإن له رحما ماسـة وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد صلوات الله وسـلامه عليه، وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شـيئاً صنع مثلهم، ليست له همة إلا فى النساء واللهو، وأما ابن الزبير فإنه خِبّ ضَبّ، فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا.

أو قال وأما الذى يجثم لك جثوم الأسـد، ويراوغـك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك، فظفرت به فقطعه إرباً إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت.

وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشـام اسـتعمل عبد العزيز ابنه على مصر وقال له حين ودعه:

أرسـل حكيما ولا توصه، أى بنى انظر إلـى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها،

تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلىّ يأتك رأيى فيه إن شاء الله تعالى، إن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَوْرة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

وصية عبد الملك بن مروان لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميرا سيره إلى أرض الروم، وقال:

أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيِّس الذى إن وجد ربحا اتَّجر، وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك.

وصيته للشعبى

روى المسعودى فى مروج الذهب:

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه إلى محادثة الرجال الأشراف فى أخبار الناس، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى، فلما حُمِل إليه ونادمه، قال له:

يا شعبى، لا تساعدنى على ما قبح، ولا ترد علىّ الخطأ فى مجلسى ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية ودع عنك (كيف أصبح الأمير وكيف أمسى) وكلمنى بقدر ما أستطعمك واجعل بدل المدح لى صواب الاستماع منى، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعتنى أتحدث فلا يفوتنك منه شىء وأرنى فهمك من طرفك وسمعك، ولا تجهد نفسك فى نظر صوابى ولا تستدعِ بذلك الزيادة فى كلامى، فإن أسوأ الناس حالاً من استكدّ الملوك بالباطل، وإن أسوأ حالاً منهم من استخف بحقهم، واعلم يا شعبى أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حق الحرمة، فإن الصمت فى موضعه وعند إصابته وفرصته.

وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاه مصر فقال:

ابسط بشرك، وألن كتفك، وآثر الرفق فى الأمور، فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه، لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده، إذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك، وتثبت فى قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك شكل فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنها تفتح مغاليق الأمور وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدر منك على ردها بعد إمضائها.

وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه فقال:

يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنا مِت فشمر واتَّزر، والبس جلد نمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا، فقال: إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لقليل، وإن كنا منك لفى غرور ثم أقبل على جميع ولده فقال:

أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنة واقية فالتقوى خير زاد، وأفضل فى المعاد، وهى أحصن كهف، وليعطف الكبير منكم على الصغير وليعرف الصغير حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور وإياكم والبغى والتحاسد، فبهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المكين، يا بنى: أخوكم مسلمة نابكم الذى تفترون عنه، ومجنكم الذى تستجنون به، اصدروا عن رأيه، وأكرموا الحَجاج فإنه الذى وطّأ لكم هذا الأمر، وكونوا أولادا أبرارًا، وفى الحرب أحرارا، وللمعروف منارا، وعليكم السلام.

وصية يزيد بن معاوية لسالم بن زياد حين ولاه

لما ولّى يزيد بن معاوية سالم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له:

إن أباك كفى أخاه (يعنى معاوية) عظيما، وقد استكفيتك صغيرا فلا تتكلن على عذر منى لك، فقد اتكلت على كفاية منك، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك، فإن الظن

إذا أخلف مني فيك أخلف منك فيّ، وأنت فى أدنى حظك فاطلب أقصاه، وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحنّ نفسك وكن لنفسك تكن لك، واذكر فى يومك أحاديث غدك تسعد إن شاء الله تعالى.

وصية عتبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده

قال عتبة بن أبى سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده:

ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بَنِيّ إصلاح نفسك فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت، وعلمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روّهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشوقه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلّة للفهم، وأدبهم دونى، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء، وجنبهم محادثة النساء وروّهم سِيَر الحكماء، واستزدنى بزيادتك إياهم أزِدْك، وإياك أن تتكل على عذر لك، فقد اتكلت على كفاية منك، وزد فى تأديبهم أزِدْك فى برى إن شاء الله تعالى.

وصية سعيد بن العاص لبنيه

لما ولد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع، تفرس فيه النجابة، وكان يفضله على ولده، فجمع بنيه، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلا، ولم يدع عمرا معهم وقال:

«يا بنى، قد عرفتم خبرة الوالد بولده، وإن أخاكم عمرا، لذو همة واعدة، يسمو جَدُّه، ويبعد صيته، وتشتد شكيمته وإنى آمركم إن نزل بى من الموت ما لا محيص عنه، أن تظاهروه، وتؤازروه، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام،ويخسأ عنكم اللئام، ويلبسكم عزاً لا تنهجه الأيام فقالوا: جميعًا: إنك تؤثره علينا، وتحابيه دوننا.

فقال: سأريكم ما ستره البغى عنكم، وصرفهم، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان، وراهق عمرو البلوغ، واستدعاهم دون عمرو فلما حضروا قال: يا بنى ألم تروا إلى أخيكم عمرو؟ فإنه لا يزال فى مسألتى مالى، فأخشى عليه لصغره، وأحَسَبه بالشئ دون الشىء من مالى، إلى أن أستثبت أن أمه باغيته على ذلك فزجرتها فلم تكفف. وهذا مخرجه الآن من عندى، جاء يسألنى الصَّمصامة كأن لا ولد لى غيره، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه، لتعلم أمه من يكيد فقالوا كلهم: يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا، واختصامك إياه دوننا فقال:

يا بني والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قط، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلافا تساهلت فيه، لما أملته من صلاح أمركم ثم قال لهم: ادخلوا المخدع فدخلوا المخدع، ثم أرسل إلى عمرو فأحضروه، فلما حضر قال:

يا بني: إني عليك حَدِب مشفق لصغر سنك وتعاسة إخوتك على مكانك مني، وإني لا آمن بغتة الأجل ولي كنز ادّخرته لك دون إخوتك، وها أنا مطلعك عليه فاكتم أمره.

فقال: يا أبت، طال عُمرك، وعلا أمرُك إني لأرجو أن يحسن الله عنك الدفاع، ويطيل بك الإمتاع، فأما ما ذكرته من شأن الكنز فما يعجبني أن أقطع دون إخواتي أمراً وأزرع في صدورهم غمرا».

فقال: انصرف يا بني، فداك أبوك، فو الله مالي من كنز، ولكني أردت أن أبلو رأيك في إخوتك وبين أبيك، فانطلق عمرو وخرج إخوته من المخدع فاعتذروا إلى أبيهم، وأعطوه موثقهم على اتباع مشورته.

نصيحة عمرو بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً وآخر يسمع منه، فقال للمستمع: نزّه سمعك من استماع الناس، كما تنزه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، وإنما نظر إلى شرّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك ولو رُدَّت كلمة جاهل في فيه، لسعد رادَّها كما شقي قائلها.

وصية زياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عبيد أنه قال: كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده، وأمر الناس بحفظها، وتدبر معانيها وهي:

إن الله – عز وجل – جعل لعباده عقولا، عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ومسيء بخذلان الله إياه، ولله النعمة على المحسن، والحجة على المسئ، فما أولى من تمت عليه النعمة في نفسه ورأى العبرة في غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله، فيعطي ما عليه منها، ولا يتكثر بما ليس له منها فإن الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها، ولابد من لقاء الله، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها فلا تقدرون على التوبة، وليس لكم منها أوبة وأنا أستخلف الله عليكم وأستخلفه منكم».

قال الجاحظ: وقد روى هذا الكلام عن الحجاج وزياد أحق به منه.

وصية المهلب بن أبى صفرة لأبنائه عند موته

روى الطبرى قال:

لما كان المهلب بن أبى صفرة بزاغول من مَرْو الرُّوذ (من خراسان) أصابته الشوصة (قوم يقولون الشوكة) فدعا حبيبا ومن حضر من ولده، ودعا بسهام فحزمت، وقال أترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. قال أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم.

قال: فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ فى الأجل، وتثرى المال، وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلة، تباذلوا وتواصلوا تحابُّوا، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم، إن بنى الأم يختلفون، فكيف ببنى العلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتكن فعالكم أقل من قولكم، فإنى أحب الرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه.

واتقوا الجواب، وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقه، فكفى بغُدُوّ الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحبُّوا العرب، واصطنعوا العرب، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ وعليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع فى الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه، قيل أتى الأمر من وجهه، ثم ظفر فحمد، وإن لم يظفر بعد الأناة. قيل: ما فرط ولا ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السُّنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم، وقد استخلفت عليكم يزيد، وجعلت حبيبا على الجند، حتى يقوم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه.

وعهد إلى يزيد فكان من جملة ما قال له:

«يا بنى استعقل الحاجب، واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه، وكاتبه لسانه، وكان يقول لبنيه: يا بنى أحسن ثيابكم ما كان على غيركم ومن كلماته المأثورة قوله»:

الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يُعطيه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فىّ غداً إذا مت».

وقوله: عجبت لمن يشترى العبيد بماله ولا يشترى الأحرار بأفضاله.

وصية «يزيد بن الهلب» لابنه مخلد قتل سنة ١٠٢هـ.

ولما ولى يزيد بن المهلب خراسان فى عهد سليمان بن عبد الملك فتح جرجان، وطبرستان سنة ٩٨، وقد أوصى ابنه مخلدا حين استخلفه على جرجان فقال:

يا بنى إنى قد استخلفتك على هذه البلاد، فانظر هذا الحى من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

وإذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمى

وانظر هذا الحى من ربيعة، فإنهم شيعتك وأنصارك فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحى من تميم، فأمطرهم ولا تزه لهم ولا تدنهم فيطمعوا ولا تقصهم فينقطعوا عنك، وانظر هذا الحى من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ومناصفوهم المنابر فى الإسلام، ورضاهم منك البشر.

يا بنى: إن لأبيك صنائع فلا تفسدها فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهدم ما بنى أبوه، وإياك والدماء فإنها لا بقية بعدها، وإياك وشم الأعراض فإن الحر لا عن عرضه عوض، وإياك وضرب الأبشار، فإنه عار باق، ووتر مطلوب، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى، ولا تعزل إلا عن عجز وخيانة، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه، فإنك إنما تصطنع الرجال لفعلها، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم.

وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه، وليكن رسولك فيها بينى وبينك من يفقه عنى وعنك فإن كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع سره، وأستودعك الله، فإنه ينبغى للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف وما خف من المنطق، وقلّ من الخطبة أحب إلى أبيك.

نصيحة عمر بن هبيرة لبعض أبنائه

وقال عمر بن هبيرة يؤدب بنيه:

لا تكونن أول مشير، وإياك والهوى والرأى الفطير وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد، ولا على وغد ولا على متلون، ولا على لجوج، وخف الله فى موافقة هوى المستشير، فإن التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة.

وقال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قلّ صديقه.

نصيحته لقومه

وقال بخراسان: يا بنى تميم تحابوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد، أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة قام إليه عرهم أخو بنى العدوية فقال:

أصلح الله الأمير، إن هذا الحى من تميم تئط بقريش منهم رحم داسّة ماسّة، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكر، المحرب المجرب، الذى أرضعته الحرب بلبانها، وجرسته وضرسته وذلك أخو الأزد المهلب بن أبى صفرة والله إن غثك أحب إلينا من سمينه، ولكنى أخاف عدوات الدهر وغدره، ليس المجرب كمن لايعلم ولا الناصح المشفق كالغاش المتَّهم. قال له خالد: اسكت ما أنت وذا؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز وأحدوا امرأته وفر عنها.

وصية عبد الملك بن مروان لبنى أمية

وقال عبد الملك بن مروان يا بنى أمية: ابذلوا فداكم، وكفوا آذاكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتم فإن خير المال ما أفاد حمدا، أو نفى ذما، ولا يقولن أحدكم: ابدأ بمن تعول، فإنما الناس عيال الله، وقد تكفل الله بأرزاقهم، فمن وسع أخلف الله عليه ومن ضيّق ضيق الله عليه.

وصية عبد الله بن شداد لابنه

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة، دعا ابنا له يقال له محمد، فقال:

يا بنى، إنى أرى داعى الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع ومن بقى فإليه ينزع، وإنى موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية فى السر والعلانية، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعـادة جمع مال ... ولكـن التـقـى هـو السعـيـد
وتقوى الله خيـر الـزاد ذخرا ... وعنـد الله لـلأتقــى مـزيـد
ومـا لابـد أن يأتــى قـريـب ... ولكـن الــذى يمضـى بعيـد

ثم قال: أى بنى، لا تزهدن فى معروف، فإن الدهر ذو صروف والأيام ذات نوائب على الشـاهد والغائـب، فكم من راغب أصبح مطلوبًا ما لديـه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان، وكن أى بنى كما قال أبو الأسود الدؤلى:

وعد مـن الرحمـن فضـلاً ونعمـة ... عليـك إذا جـاء للعـرف طـالب
وإن امرأ لا يرتجـى الخيـر عنـده ... يكـن هيّنا ثقـلا على من يصاحب
فـلا تمنعـنّ ذا حاجة جاء طـالبا ... فـإنك لا تـدرى متـى أنـت راغب
رأيـت التـو هـذا الزمـان بـأهـلـه ... وبـيـنهم فـيـه تـكـون النـوائـب

ثـم قــال: أى بنى، كن جوادا بالمال فــى موضع الحق، بخيلاً بالأسـرار عن جميع الخلـق، فـإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجه البـر، وإن أحمد بخل الحر الضن بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى:

أجــود بمـكنــون التـلاد وإننــى ... بسرّك عمَّــن سـالنــى لضنيــن
إذا جــاوز الاثنيـن سـرٌّ فـإنــه ... نبـث وتكثيـر الحديـث قميـن
وعندى لــه يومـاً إذا مـا ائتمننى ... مكـان بسـوداء الفـؤاد مـكيـن

ثم قال: أى بنى، وإن غلبت يوماً على المال، فلا تدعٍ الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدَّنى عيال، وكن أحســن ما تكون الظاهر حالاً، أقل ما تكون فى الباطن مالا، فــإن الكريــم من كرُمت طبيعته، وظهــرت عند الإنقاذ نعمته، وكن كمــا قال ابن خذاف العبدى:

وجـدت أبــى أورثـــه أبـوه ... خِلالاً قــد تعـدّ مـن المعـالـى
فأكــرم مـا تكـون علـى نفسى ... إذا ما قـل فــى الأزمـات مـالـى
فتحسـن سيـرتى وأصـون عرضى ... ويجمـل عند أهـل الـرأى حـالـى
وإن نلـت الغـنــى لـم أغـل فيـه ... ولم أخصص بجفـوتـى المـوالـى

ثم قال: أى بنى، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالمشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها وكان يقال: الأريب العاقل، هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائى:

وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مخلف من يرتجينى
وكلمة حاسد فى غيره جرم سمعت فقلت مُرىّ فانفذينى
فعابوها علىَّ ولم تسؤنى ولم يعرق لها يوما جبينى
وذو اللونين يلقانى طليقا وليس إذا تغيب يأتلينى
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حسبى ودينى

ثم قال: أى بنى، لا تؤاخ امرأ حتى تعاشره، وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة فواخه على إقالة العثرة، والمواساة فى العسرة، وكن كما قال المقنع الكندى:

أقبل الرجال إذا أردت إخاءهم وتوسم فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى فبه اليدين قرير العين فاشدد
وإذا رأيت (ولا محالة) زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

ثم قال: أى بنى: إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط فإنه قد كان يقال: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما وكن كما قال هدية بن الخشرم العذرى.

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا فإنك راءٍ ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا فإنك لا تدرى متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا فإنك لا تدرى متى أنت راجع

وعليك بصحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار، وكن كما قال الشاعر:

اصحب الأخيار وارغب فيهم رُبَّ من صاحبته مثل الجرب
ودع الناس فلا تشتمهم وإذا شاتمت فاشتم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذى يشترى الصُّفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثتهم ودع الناس فمن شاء كذب

وصية أسماء بن خارجة لابنته

زوج أسماء بن خارجة الفزارى بنته هندا من الحجاج بن يوسف فلما كانت ليلة أراد البناء بها، قال لها أسماء: يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكُحْل، وإياك وكثرة المعاتبة، فإنها قطيعة للود وإياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وكونى لزوجك أمه يكن لك عبداً واعلمى أنى القائل لأمك:

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المغيب
فإنى وجدت الحب فى الصدور والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب «عبد الحميد بن يحيى الكاتب» رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها فقال:

«أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله – عز وجل – جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا، وإن كانوا فى الحقيقة سواء، وصرفهم فى صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معايشهم، وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكُتَّاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم، لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه، من النعمة عليكم».

وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتَّاب، وإذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه، الذى يثق به فى مهمات أموره، أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحكم، مقداما فى موضع الإقدام، محجاما فى موضع الإحجام،

ومؤثرا للعفاف، والعدل، والإنصاف، كتوما للأسـرار، وفيا عند الشـدائد، عالما بما يأتى مـن النـوازل، يضع الأمور مواضعا، والطوارق أماكنها، وقد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمـه أخذ منه بمقدار يكتفى به، يعرف بغريزة عقله، وحسـن أدبه وفضل تجربته ما يَـرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر قبل صـدوره، فعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجهٍ هيئته وعادته، فتنافسـوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله – عز وجل – والفرائض ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشـعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسـيرها فإن ذلك معيـن لكم على ما تسـموا إليه هممكـم، ولا تتبعوا النظر فى الحسـاب، فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسـكم عن المطامع سَـنيها ودنيها وسفاسف الأمور ومحاقرها، فإنها مدلة للرقاب، مفسدة للكتَّاب، ونزهوا صناعتكم عن الدَّناءات واربأوا بأنفسكم عن السعّاية والنميمـة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداءة مجتلبة من غيـر إحنة، وتحابوا فى الله – عز وجـل – فى صناعتكم، وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره، إن أقعد أحدكم الكبر عن مكبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشـاوروه واسـتظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحفظ منه على ولده وأخيه فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فى الشـغل فليحملها هو من دونه، وليحذر السَّقطة والذلة، والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشرَ الكتاب أسرع منه إلى القراء وهو لكم أفسد منه لها.

فقـد علمتـم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل يبذل له من نفسـه ما يجب له عليه من حقـه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشـكره واحتماله وصبره، ونصيحته، وكتمان سـره، وتدبـير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعلـه عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه. فاستشـعروا ذلك وفقكم الله من أنفسـكم فى حالة الرخاء والشـدة والحرمان والمواسـاة، والإحسـان والسـراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه لمن وسـم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله دعيا له أمر فليراقب

الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكما، وللأشراف مكرما، وللفىء موفرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألقا، وعن إذائهم متخفيا وليكن فى مجلسه متواضعا سليما، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا، وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة، وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها، التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها وإن خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها فى طريقها فإن استمرت غطفها يسيرًا فيسلس له قيادها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس وعاملهم وخدمهم وداخلهم.

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ومداراته، وتقويم وده من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ألا فأمعنوا رحمكم الله فى النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله من صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى.

ولا يجاوزن الرجل منكم، فى هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره – قدر حقه فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما، ولاسيما الكتاب، وأرباب الآداب، وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة.

وأعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنقاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى فى منطقه وليوجز فى ابتدائه وجوابه،

وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن إكثاره. وليضرع إلى الله فــى صلة توفيقه، وإمداده بتســديده مخافة وقوعه فــى الغلط المضر بيديه وعقله وأدبه فإنــه إن ظن منكم ظان، أو قال قائــل: إن الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته، إنما بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض من بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف.

ولا يقــل أحــد منكم إنه أبصــر بالأمور، وأحمل لعبء التدبير مــن مرافقه فى صناعته ومصاحبــه فى خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب فى طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل شــأنه، من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفســه، ولا تكاثر على أخيه، أو نظيره، وصاحبه، وعشيره، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته.

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل: من يلزم النصيحة يلزمه العمل، وهو جوهر هــذا الكتــاب وغرة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله – عــز وجل – فلذلك جعلته آخره وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة، بما يتولى به من سبق عمله بإسعاده، وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فن المقال

مقال «عمرو بن العاص»

فحمد الله، وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر عليا عليه السلام فلم يترك شيئا يعيبه به إلا قاله، وقال إنه شتم أبا بكر، وكره خلافته، وامتنع من بيعته ثم بايعه مكرها، وشارك فى دم "عمر" وقتل "عثمان" ظلما، وادعى من الخلافة ما ليس به، ثم ذكر الفتنة يعيره بها، وأضاف إليه مساوئ، وقال: إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء، وحرصكم على الملك، وإتيانكم ما لا يحل، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك وليس عندك عقل ذلك ولا لبه كيف ترى الله سبحانه وتعالى سلبك عقلك، وتركك أحمقَ قريشٍ ويسخر منك ويهزأ وذلك لسوء عمل أبيك، وإنما دعوناك لنسبك وأباك، فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره، وأما أنت فإنك فى أيدينا نختار فيك الخصال، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله، ولا عيب من الناس فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا؟ فإن كنت ترى أنا كذبنا فى شىء فاردده علينا فيما قلنا وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان.

مقال «الوليد بن عقبة- بن أبى معيط»

ثم تكلم «الوليد بن عقبة بن أبى معيط» فقال:

«يا بنى هاشم: إنكم كنتم أخوال عثمان، فنعم الولد كان لكم، فعرف حقكم، وكنتم أصهاره، فنعم الصهر كان لكم، فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلما، لا عذر له فكيف ترون الله طلب بدمه، والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية، وإن معاوية خير لك من نفسك».

مقال «عتبة بن أبى سفيان»

ثم تكلم «عتبة بن أبى سفيان» فقال:

«يا حسن: كان أبوك شر قريش لقريش لسفكه لدمائها وقطعه لأرحامها، طويل السيف واللسان، يقتل الحى ويعيب الميت، وإنك ممن قتل «عثمان» ونحن قاتلوك به، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زندها قادحا، ولا فى ميزانها راجحا، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم «عثمان» وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره وأقاد منه، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان».

مقال «المغيرة بن شعبة»

ثم تكلم «المغيرة بن شعبة»، فشتم عليا وقال: والله ما أعيبه فى قضية بخون، ولا فى حكم بميل، ولكنه قتل عثمان ثم سكتوا.

مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس، كانا صفيين دون الناس فحفظت الميت فى الحى والحى فى الميت، استعملك علىّ يا ابن عباس على البصرة، واستعمل أخاك عبيد الله على اليمن، واستعمل أخاك على المدينة، فلما كان من الأمر ما كان هنأتكم بما فى أيديكم ولم أكشفكم عما وعت غرائركم، وقلت آخذ اليوم وأعطى غدا مثله، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم، خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وحاربتمونى بصفين، ولعمرى لبنو تيم وعدى أعظم ذنوبا منا إليكم، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنوا فيكم هذه السنة فحتى متى أغضى الجفون على القذى، وأسحب الذيول على الأذى، وأقول لعل الله وعسى ما تقول يا بن عباس.

مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال:

«رحم الله أبانا وأباك، كانا صفيين متفاوضين، لم يكن لأبى من مال إلا ما فضل لأبيك، وكان أبوك كذلك لأبى، ولكنه من هنأ أباك بإخاء أبى أكثر من هنأ أبى بإخاء أبيك، نصر أبى أباك فى الجاهلية، وحقن دمه فى الإسلام، وأما استعمال علىّ إيانا فلنفسه دون هواه، وقد استعملت أنت رجالاً لهواك لا لنفسك، فمنهم ابن الحضرمى على البصرة فقتل، وبسْر ابن أرطأة على اليمن فخان، وحبيب بن مرة على الحجاز فرد، والضحاك بن قيس الفهرى على الكوفة فحصب، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا، وليس الذى يبلغك عنا بأعظم من الذى يبلغنا عنك، ولو وضع أصغر ذنوبك إلينا على مائة حسنة لمحقها، ولو وضع أدنى عندنا إليك على مائة سيئة لحسنها، ولما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلنا

أنصـــاره يــوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه، وأما حربنا إياك بصفين، فعلى تركك الحق وادعاؤك الباطل، وأما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها» وسكت.

مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس فقال:

«لــو وليتمونـــا ما آتيتم إلينا مـــا آتينا إليكم من الترحيب والتقريـــب وإعطائكم الجزيل وإكرامكــم على القليـــل، وصبرى على ما صبرت عليه منكم، إنـــى لا أريد أمرا إلا أظمأتم صـــدره، ولا آتـــى معروفا إلا صغرتم إنى خطـــره، وأعطيكم العطية فيهـــا قضاء حقوقكم، فتأخذوهـــا متكارهين عليهـــا تقولون قد نقص الحق دون الأمل، فـــأى أمل بعد ألف ألف أعطيهـــا الرجل منكم، ثم أكون أســـر بإعطائها منه بأخذهـــا، والله لئن انخدعت لكم فى مالـــى وذللت لكم فى عرضى أرى انخداعى كرما، وذلـــى حلما، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ولا نسألكم أموالكم لعلمنا بحالكم وحالنا، ويكون أبغضنا إلينا أحبها إليكم أن نعفيكم».

مقال ابن عباس

«لو ولينا أحســـنا المواســـاة، وما ابتلينا بالأثرة، ثم لم نغشم الحى، ولم نشتم الميت، فلستم أجود منا أكفا ولا أكرم أنفا، ولا أصون لأعراض المروءة، ونحن والله أعطى للآخرة منكـــم للدنيا، وأعطى فـــى الحق منكم فى الباطل، وأعطى على التقوى منكم على الهوى، والقسم بالسوية والعدل فى الرعية يأتيان على المنى والأمل، ما أرضاكم منا بالكفاف، فلو رضيتم منا لم ترض أنفسنا به لكم، والكفاف رضا من لا حق له. فلا تبخلونا حتى تسألونا، ولا تلفظونا حتى تذوقونا».

مقال معاوية لبنى هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال:

«يـــا بنى هاشـــم: والله إن خيرى لكم لممنوح، وإن بابـــى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم علة ولا يوصد بابى دونكم مســـألة ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا،

وإنكـــم لترون أنكم أحق بما فى يدى منى، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم دون حقنا، وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمســلوب والمســلوب لا حمد له، وهذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم».

مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال:

«والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، لله أوســع منك، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفســنا عنك وأما هذا المال فليس لــك منه إلا ما لرجل من المســلمين، ولنا فى كتاب الله حقــان حق فى الغنيمة وحق فى الفــىء – فالغنيمــة: ما غلبنا عليه، والفىء ما اجتبيناه، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر، أكفاك أم أزيدك؟ قال: كفانى فإنك لا تعز ولا تشج».

مقال معاوية

وقال يوما معاوية وعنده ابن عباس: «إذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياســتها، وبنو أسد بن عبد العزى برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابتها ولوائها، وبنو مخزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تيم بصديقها وجوادها، وبنو عدى بفاروقها ومتفكرها، وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح بشرفها وأنوفها، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريعها، فمن ذا يجلى مضمارها ويجرى إلى غايتها، ما تقول يا بن عباس؟».

مقال ابن عباس

قال: «أقول ليس حى يفخر بأمر وإلى جنبهم من يشــركهم إلا قريشــا، فإنهم يفخرون بالنبوة التى لا يشاركون فيها، ولا يساوون بها ولا يدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمــداً مــن قريش إلا وقريش خير البرية، ولم يجعله فــى بنى عبد المطلب إلا وهم خير بنى هاشم، ما نريد أن يفخر عليكم بما تفخرون به، إن بنا فتح الأمر وبنا يختم، ولك ملك معجل، ولنا ملك مؤجل فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد ملكنا ملك، لأنا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين»

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعى الحسن بن على رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور، حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك «عبد الله بن عباس» وكان بالشام يومئذ، فدخل على «معاوية» فلما جلس قال «معاوية» يا بن عباس هلك الحسن بن على، ولم يظهر حزنا، فقال ابن عباس: نعم هلك إنا لله وإنا إليه راجعون، ترجيعا مكررا، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سد جسده حفرتك ولا زاد نقصان أجله فى عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله ﷺ فجبر الله مصيبته، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة.

فقال له معاوية: «كم كانت سنه؟ قال: مولده أشهر من أن تتعرف سنه: قال: أحسبه ترك أولادا صغارا؟ قال: كلنا كان صغيرا فكبر ولئن اختار الله لأبى محمد ما عنده وقبضه إلى رحمته، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعنى الحسين) وفى مثله الخلف الصالح، ثم شهق وبكى، وبكى من حضر فى المجلس، وبكى معاوية».

عبد الله بن عباس وعتبة بن أبى سفيان

قال عتبة بن أبى سفيان لابن عباس: «ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبى موسى يوم الحكمين؟ قال: منعه والله من ذلك حاجز القدر وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثنى مكانه، لإعترضت له فى مدراج نفسه، ناقضا لما أبرم، ومبرما لما نقض أَسَفَّ إذا طار وأطير إذا أُسِفَّ، ولكن مضى قدر وبقى أسف، ومع يومنا غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين من الأولى».

مقال مروان بن الحكم

فقال مروان بن الحكم: يا بن عباس إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك، كأنك ترجو الغلبة وتؤمل العافية، ولو لا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أنامله، فأوردكم منهلا بعيدا صدره، ولعمرى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم، ولئن عفا عن جزائركم فقديما ما سنب إلى ذلك.

جواب ابن عباس

فقــال ابن عباس: «وإنك لتقول ذلك يا عدو الله، وطريد رســول الله ﷺ والمباح دمه، والداخــل بين عثمان ورعيته بما حملهم علــى قطع أوداجه، وركوب أثباجه، أما والله لو طلــب معاويــه ثأره لأخذك به، ولو نظــر فى أمر عثمان لوجدك أولــه وآخره، وأما قولك لى: إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك، فســل معاوية وعمرا يخبراك ليلة الهرير[1] كيف ثباتنا للمثلات، واســخفافنا بالمعضلات وصدق جلادنا عند المصاولة، وصبرنا على اللآواء والمطاولة ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة، ومباشرتنا بنحورنا حد الأسنة، هل خمنا عن كرائم تلك المواقف أم لم نبذل مهجنا للمتألف؟ وليس ذلك إذ ذاك فيها مقام محمود، ولا يوم مشــهود ولا أثر معدود، وإنها شــهدا ما لو شهدت لأقلقك، فأربع على ظلعك، ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمغروز فى صفد، لا يهبط برجل، ولا يرقى بيد».

مقال زياد

فقال زياد: «يا بن عباس: إنى لأعلم، ما منع حسنا وحسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما ســولت لهما أنفســهما وغرهما به من هو عند البأساء يسلمهما، وأيم الله لو وليتهما لأدأبا فى الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ونقل بمكانهما لبثهما».

جواب ابن عباس

فقــال ابــن عباس: «إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيــق بها ذراعك ولو رمت ذلك لوجــدت دونهما فئــة صدقا، صبرا على البلاء ولا يخيمون عــن اللقاء، فلعركوك ووطئوك بمناســمهم، وأوجروك مشق رماحهم وشفار سيوفهم، ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ما أتيــت وتتبين ضياع الحزم فيما جنيت، فحذرا حذرا من ســوء النيــة فإنها ترد الأمنية، وتكون ســببا لفســاد هذين الحيين بعد صلاحهما، وســعيا فى اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرهما إبساسك، ولا يغنى عنهما إيناسك».

---

(١) هى ليلة العاشــر من صفر ســنة ٣٧ وفيها حمل جيش علىّ على جيش معاوية فى وقعة صفين حملة عنيفة، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح، وأوشك جيش علىّ أن تكون له الغلبة.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال: عبد الرحمن بن أم الحكم

«لله در ابن ملجم! فقد بلغ الأمل، وأمن الوجل، وأحدَّ الشفرة، وألان المهرة، وأدرك الثار، ونفى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورقى الدرجة القصوى».

جواب ابن عباس

«أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجل الله إلى النار بروحه ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته، لخالطه الفحل القطم، والسيف الخذم ولا لعقه صايا، وسقاه سماما، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة فكلهم كان أشد منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف هامهم، ورمّلهم بدمائهم، وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم، أولئك حَصَب جهنم هم لها واردون فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا، ولا غرو إن خُتل، ولا صمة إن قتل فإنا لكما قال دريد بن الصمة:

فإنا للحْمُ السيف غير مُكرَّه ونلحمه طورا وليس بذى نكر
يُغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة:

«أما والله لقد أشرته على عليّ بالنصيحة، فآثر رأيه ومضى على غلوائه فكانت العاقبة عليه لا له، وإلى لأحسب أن خلفه يقتدرون بمنهجه».

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

«كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأى، ومعاقد الحزم وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنّف عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: آية ٢٢].
ولقد وقفك على ذكر مبين وآية متلوة، قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: آية ٥١]. وهل كان يسوغ له أن يحكم فى دماء المسلمين وفىء المؤمنين، من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق به، فى نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلا للتقية، ولات حين تقية!! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، كالسيف المصلت فى أمر الله مؤثرا لطاعة ربه، والتقوى على آراء أهل الدنيا».

مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية:

يا ابن عباس إنك لتنطق بلسان طلق، ينبىء عن مكنون قلب حَرِقٍ فاطوّ على ما أنت عليه كشحًا، فقد محا ضوء حقنا ظلمة باطلكم.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

مهلا يزيد، فوالله ما صفت القلوب لكم منذ تكدرت بالعداوة عليكم ولا دنت بالمحبة إليكم، فقد نأت بالبغضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تدل الأيام نستقض ما سد عنا، ونسترجع ما ابتز منا، كيلا بكيل، ووزنًا بوزن، وإن تكن الأخرى، فكفى بالله وليًا لنا، ووكيلاً على المعتدين علينا.

مقال معاوية

فقال معاوية:

إن فى نفسى منكم لحزازات يا بنى هاشم، وإنى لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفى العار، فإن دماءنا قبلكم، وظلامتنا فيكم.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

والله إن رمــت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أســدا مخــدرة، وأفاعى مطرقة، لا يفثؤها كثرة السلاح، ولا تعضها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قدما من ناوأهم، يهون عليهم نباح الكلاب وعواء الذئاب لا يفاتون بوتر، ولا يسبقون إلى كريم ذكر قد وطنوا على الموت أنفسهم، وسمت بهم إلى العلياء هممهم كما قالت الأزدية:

قوم إذا شهدوا الهياج فـلا ... رب ينهنهـهــم ولا زجــــر
وكانهم آساد غـيـنـة قـــد ... غَرِثت وَبَـلّ متونها القطــر

فلتكونــن منهــم بحيث أعددت ليلــة الهرير للهرب فرصك، وكان أكبر همك ســلامة حشاشــة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وندلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا الشــفار وأيقنوا بحلول الدمار رفعوا المصاحف مســتجيرين بها، وعائذين بعصمتها لكنت شــلوا مطروحا بالعراء، تســفى عليك رياحها، ويتورك ذبابها، وما أقول هذا أريد صرفــك عن عزيمتك، ولا إزالتك عن معقود نيتك لكن الرحم التى تعطف عليك، والأواصر التى توجب صرف النصيحة إليك.

فقال معاوية:

والله درك يا ابن عباس، ما تكشــف الأيام منك إلا عن ســيف صقيل، ورأى أصيل! وبــالله لــو لم يلد هاشــم غيرك، لمــا نقص عددهم، ولــو لم يكن لأهلك ســواك لكان الله قد كثرهم، ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف.

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص فى موسم من مواســم العرب، فأطرى معاوية بن أبى سفيان وبنى أمية، وتناول بنى هاشــم، وذكر مشــاهدة بصفين، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله عباس على «عمرو» فقال:

مقال ابن عباس

يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية، وأعطيته ما بيدك، ومنّاك ما بيد غيره، فكان الذى أخذ منك أكثر من الذى أعطاك والذى أخذت منه دون الذى أعطيته، وكل راض بما أخذ

وأعطى، فلما صارت مصر فى يدك، كدرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك فى يدك ألقيتها إليه، وذكرت يومك مع أبى موسى فلا أراك فخرت إلا بالغدر، ولا مننت إلا بالفجور والغش، وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك، ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غرور ووجهان: وجه موحش ووجه مؤنس ولعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره لحرىّ أن يطول حزنه على ماباع واشترى، لك بيان وفيك خطل، ولك رأى وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد وأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك.

رد ابن العاص

فأجابه «عمرو بن العاص»: «والله ما فى قريش أثقل علىّ مسألة ولا أمر جوابا منك، ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت، غير أنى لم أبع دينى من معاوية، ولكن بعت الله نفسى، ولم أنس نصيبى من الدنيا، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تُعلم العوان الخمرة. وأما ما أتى إلى معاوية فى مصر فإن ذلك لم يغيرنى له، وأما خفة وطأتى عليكم بصفين، فلما استثقلتكم حياتى واستبطأتم وفاتى، وأما الجبن فقد علمتْ قريش أنى أول من يبارز، وآخر من ينازل وأما طول لسانى، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

لسانى طويل فاحترس من شذاته، عليك وسيفى من لسانى أطول وأما وجهاى ولساناى، فإنى ألقى كل ذى قدر بقدره وأرمى كل نابح بحجره، فمن عرف قدره كفانى نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسى، ولعمرى ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعنى ذلك عندك وأنشأ عمرو يقول:

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم ... بى اليوم جهال؟ وليس بكم جهل

ألم تعلموا أنى جسور على الوغى ... سريع إلى الداعى إذا كثر القتل

وأول من يدعو نزال طبيعة ... جبلت عليها والطباع هو الجبل

وأنى فضلت الأمر بعد اشتباهه ... بدومة إذ أعيا على الحكم الفصل

وأنى لا أعيا بأمر أريده ... وأنى إذا هجت بكاركم فحل

ابن عباس وابن الزبير فى مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سـرير مروان بن الحكم – وهو يومئذ أمير المدينة سـرير آخر أصغر من سـريره، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل وتوضع الوسـائد فيما سـوى ذلك، فأذن مروان يوما للناس، وإذا سـرير آخر قد أحدث تجاه سـرير مروان فأقبل ابن عباس فجلس على سـريره وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السـرير المحدث وسـكت مروان والقوم، فإذا يد ابن الزبير تتحرك، فعلم أنه يريد أن ينطق ثم نطق فقال:

مقال ابن الزبير

إن ناسا يزعمون الأمر لهم أن بيعة أبى بكر كانت غلطا وفلقة ومغالبة ألا إن شأن أبى بكـر أعظـم من أن يقال فيه هذا! ويزعمون أنه لو لا مـا وقع لكان الأمر لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمد ﷺ أحد أثبت إيمانا، ولا أعظم سـابقة ولا أعظم من أبى بكر، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال، ثم ألقى عمر حظهم فى حظوظ/ وجدهم فى جدود، فقسمت تلك الخطوط فأخر الله سهمهم، وأدحـض جدهم، وولى الأمر عليهم مـن كان أحق به منهم فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجا من الفرية، فأصابوا منه غرة فقتلوه، ثم قتلهم الله به كل قتلة وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب.

مقال ابن عباس

فقـال ابن عباس على رسـلك أيها القائل فى أبى بكر وعمـر والخلافة أما والله ما نالا ولا نـال أحـد منها شـيئا إلا وصاحبنا خير ممن نـالا، وما أنكرنا تقدم مـن تقدم لعيب عبناه عليه، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلا وفوق الأهل، ولولا أنك تذكر حظ غيرك وشـرف ودع تيمـا لتيم، وعديا لعـدى وأمية لأمية، ولو كلمنى تيمى أو عـدوى أو أموى، لكلمته وأخبرتـه خبـر حار عن حاضر، لا خبر غائب عن غائـب، ولكن ما أنت وما ليس عليك فإن يكن فى أسد بن عبد العزى شىء فهو لك، أما والله لنحن أقرب بك عهدا وأبيض بك يدا، وأوفر عندك نعمة، عمن أمسيت تظن أنك تصول به علينا وما أخلق ثوب صفية بعد، والله المستعان على ما تصفون.

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيس بن سـعد بن عبادة، بعد وفاة على ووقوع الصلح، فى جماعة من الأنصار علىمعاوية فقال لهم «معاوية».

مقال معاوية

يا معشـر الأنصار بم تطلبون ما قلبى؟ فوالله لقد كنتم قليلاً معى، كثيرا مع على، ولقد قللتم حدى يوم «صفين» حتى أريت المنايا تلظى فى أسنتكم وهجوتمونى فى أسلافى بأشد من وقع الأسنة، حتى إذا قام الله منا ما حاولتم ميله، قلتم ارع فينا وصية رسول الله ﷺ هيهات بأبى الحقير الغدرة.

رد قيس بن سعد

فقال قيس: نطلب ما قبلك بالإسلام الكافى به الله، لا بما نمت به إليك من الأحزاب، وأمـا عداوتنا لك فلو شـئت كففتها عنـك، وأما هجاؤنا إياك فقول يـزول باطله، ويثبت حقـه، وأما اسـتقامة الأمر فعلى كره كان منـا وأما فلنا حدك يوم صفين فإنا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة وأما وصية رسول الله ﷺ - بنا، فمن آمن به رعاها بعده، وأما قولك بأبـى الحقير الغدرة فليس دون الله يد تحجـزك منا يا معاوية فقال معاوية يموه: «ارفعوا حوائجكم» «مولى القوم منهم» فأنا مولى رسول الله ﷺ وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولاءً وأحسن فعلا، قال ابن الزبير: إنى لست أجيب هذا، فهات ما عندك.

مقال ذكوان

«يا ابن الزبير»: «إن مولاى ما يمنعه من الكلام إلا أن يكون طَلَقْ اللسان، رابط الجنان، فإن نطق بعلم، وإن صمت صمت بحلم غير أنه كفّ الكلام، وسـبق إلى السـنَّام، فأقرت بفضله الكرام وأنا الذى أقول:

فـيـم الكـلام لسابق فى غـايـة ... والـنـاس بيـن مـقـصـر ومبلـد
إن الذى يجرى ليـدرك شـاوه ... يـمـنـى لـغـيـر مـوَّد ومـسـدد
بل كيف يدرك نور بدر ساطع ... خيـر الأنـام وفرع آل مـحـمـد

فقال معاوية: «صدق قولك يا ذكوان، أكثر الله فى موالى الكرام مثلك، فقال ابن الزبير: إن عبد الله سكت وتكلم مولاه ولو تكلم لأجبناه، أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جواب لهذا العبد، قال ذكوان: هذا العبد خير منك. قال رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم» فأنا مولى رسول الله ﷺ وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولاءًا، وأحسن فعلاً، قال ابن الزبير: إنى لست أجيب هذا، فهات ما عندك.

مقال معاوية

فقال معاوية:

قاتلك الله يا ابن الزبير! ما أعياك وأبغاك! أتفخر بين يدى أمير المؤمنين وأبى عبد الله! إنك أنت المتعدى لطورك الذى لا تعرف قدرك، فقس شبرك نبترك ثم تعرف كيف تقع بين عرانين، بنى عبد مناف، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس، لقطعنك بأمواجها، ثم لتوهين بك فى أجاجها، فما بقاؤك فى البحور إذا غمرتك وفى الأمواج إذا بهرتك، هنالك تعرف نفسك، وتندم على ما كان من جرأتك، وتمشى ما أصبحت إليه من أمان، وقد حيل بين العير والتدوان، فأطرق ابن الزبير مليا، ثم رفع رأسه، فالتفت إليه من حوله، ثم قال:

مقال ابن الزبير

أسألكم بالله: أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان، حارب رسول الله ﷺ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدىّ الصديق وجده المشدوخ ببدر، ورأس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وجدتى صفية وجدته حمامة؟ وزوج عمتى خير ولد آدم ﷺ وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارا ذات لهب وخالتى عائشة أم المؤمنين وخالته أشقى الأشقياء وأنا عبد الله، وهو معاوية.

مقال معاوية

فقال له معاوية:

ويحك يا بن الزبير! كيف تصف نفسك بما وصفتها، والله مالك فى القديم من رياسة، ولا فى الحديث من سياسة، ولقد قدناك وسوناك قديما وحديثا، لا تستطيع لذلك إنكارا،

ولا عنه فرارا، وهؤلاء الحضور ليعلمون أن قريشا قد اجتمعت يوم الفجار على رياسة حرب ابـن أمية وأن أباك وأسـرتك تحت رايته، راضون بإمارتـه غير منكرين لفضله ولا طامعين فى عزله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أنصتوا فأنزل فينا القيادة، وعّز الولاية، حتى بعث اللّه عز وجل محمدا ﷺ فانتخبه من خير خلقه، من أسرتى لا أسرتك، وبنى أبى لا بنى أبيك، فجحدته قريش أشـد الجحود، وأنكرته أشـد الإنكار وجاهدته أشد الجهاد، إلا من عصم اللّه من قريش، فما سـاد قريشـا وقادهم إلا أبو سـفيان بن حرب، فكانت الفئتان تلتقيان ورئيس الهدى منا، ورئيس الضلالة منا، فمهديكم تحت مهدينا وضالكم تحت راية ضالنا، فنحن الأرباب، وأنتم الأذناب، حتى خلصّ اللّه أبا سفيان بن حرب بفله من عظيم شركه، وعصمه بالإسـلام من عبادة الأصنام، فكان فى الجاهلية عظيما شـأنه، فى الإسلام معروفا مكانه، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يعط أحد من آبائك، وإن منادى رسول اللّه ﷺ نادى: مـن دخل المسـجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سـفيان فهو آمـن، وكانت داره حرما، لا دارك ولا دار أبيك، وأما هند فكانت امرأة من قريش فى الجاهلية عظيمة الخطر، وفى الإسـلام كريمة الخبر، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُـمى صديقا، لا بتصديق عبد العزى، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر، فلعمرى لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو بارزت إليه أنت وأبوك ما بارزوك ولا رأوكم لهم أكفاء، كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤهم، من بنى أبيهم، فقضى اللّه مناياهم بأيديهم، فنحن قتلنا، ونحن قتلنا وما أنت وذاك؟ وأما عمتك أم المؤمنين فبنا شرفت وسمّيت أم المؤمنين وخالتك عائشـة مثل ذلك، وأما صفية فهى أدنتك من الظل ولولا هى لكنت ضاحيا، وأما مـا ذكرت من ابن عمك وخال أبيك سـيد الشـهداء، فكذلك كانـوا رحمهم اللّه، وفخرهم وإرثهـم لـى دونك ولا فخر لـك فيهم ولا إرث بينك وبينهم، وأمـا قولك أنا عبد اللّه وهو معاوية، فقد علمت قريش أينا أجود فى الإزم، وأحزم فى القدم وأمنع للحرم، لا والله ما أراك منتهيـا حتى تـروم من بنى عبد مناف ما رام أبوك فقد طالعهم الدخول، وقدم إليهم الخيول وخدعتم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسـول الله ﷺ إذ مددتم على نسـائكم السجوف وأبرزتـم زوجته للحتوف، ومقارعة السـيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربا، فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن الحصيد بأيدى العبيد، وأما أنت فأفلت بعد

أن خمشـــتك براثينه ونالتك مخالبيه، وأيم الله لقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصحبن منها صباح أبيك بوادى السباع، وما كان أبوك المرهن حدّه، ولكنه كما قال الشاعر:

تناول سرجان فريســـة ضيعـــم   فقضغقه بالكف منــــه وحطّمـــــا

مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين إن للشاهد غير حكم الغائب، وقد حرك زياد، وله مواطن معدودة بخير، لا يفســدها التظنى، ولا تغيرها التهم، وأهلوه أهلوك التحقوا بك وتوســطوا شــأنك فســافرت به الكيان، وســمعت به أهل البلدان حتى اعتقده الجاهل، وشــك فيه العالم، فلا تتحجر يا أمير المؤمنين ما قد اتســع، وكثرت فيه الشــهادات، وأعانك عليه قوم آخرون.

فانحــرف معاويــة: إلى من معه، فقال: هذا وقذ نفســه ببيعته وطعن فى إمرته، يعلم ذلك كما أعلم، يا للرجال من آل أبى سفيان لقد حكموا وبذهم «يزيد» وحده، ثم نظر إلى عبد الله، فقال: «يا بن أخى، إنى لأعرف بك من أبيك، وكأنى بك فى غمرة لا يخطوها الســابح فالزم ابن عمك فإن لما قال حقا فخرجوا ولزم عبيد الله «يزيد» مجلسه ويطأ عقبة أياما حتى رمى به معاوية إلى البصرة واليا عليها.

ائتمار الخوارج

ثم إن الخوارج فى أيام المغيرة فزعوا إلى ثلاثة نفر منهم: المســتورد بن علفة التيمى، وحيان بن ظبيان الســلمى، ومعاذ بن جوين بن حصين الطائى، فاجتمعوا فى منزل حيان ابن ظبيان، فتشاوروا فيمن عليهم فقال لهم المستورد:

مقال المستورد بن علفة

يأيها المســلمون والمؤمنون، أراكم الله ما تحبون، وعزل عنكم ما تكرهون، ولوا عليكم مــن أحببتــم فو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصــدور ما أبالى من كان المولى على منكم، وما شــرف الدنيا نريد، وما إلى البقاء فيها من ســبيل وما نريد إلا الخلود فى دار الخلود.

مقال حيان بن ظبيان

فقــال حيــان بن ظبيان: أما أنا فلا حاجة لى فيهــا، وأنا بك وبكل امرئ من إخوانى راض، فانظروا من شئتم منكم فسموه فأنا أول من يبايعه.

مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين: إذا قلتما أنتما هذا، وأنتما سيدا المسلمين وذوا أنسابهم فى صلاحكمــا ودينكما وقدركما، فمن يرأس المســلمين؟ وليس كلكــم يصلح لهذا الأمر، وإنما ينبغى أن يلى على المسلمين - إذا كانوا سواء فى الفضل - أبصرهم بالحرب، وأفقههم فى الدين وأشدهم اضطلاعا بما حمل، وأنتما بحمد الله ممن يرى لهذا الأمر فليتوله أحدكما.

قــالا: فتولــه أنت: فقد رضيناك فأنت - والحمــد لله - الكامل فى دينك ورأيك فقال لهما: أنتما أســن منى، فليتوله أحدكما فقال حينئذ جماعة من حر: فقد رضينا بكم أيها الثلاثــة فولــوا أيكم أحببتم، وكانت خاتمــة ذلك النقاش أن بايعوا المســتورد واتعدوا أن يتجهزوا وتيسروا ويستعدوا، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ.

مقاتل عتريس بن عرقوب

فقــال لهــم «عتريس بن عرقوب»: ولكــن لا أرى رأى جماعتكم فانظروا فى رأى لكم، إنــى لا إخالكم تجهلون معرفتى بالحرب، وتجربتــى للأمور، فقالوا له: أجل، أنت كما ذكــرت فما رأيك؟ قال: ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمصر، إنكم قليل فى كثير والله ما تريدون أن تحرزوهم أنفســكم، وتقروهم أعينهم بقتلكم، وليس هكذا تكون المكايدة إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم، فكيدوا عدوكم ما يضرهم، قالوا: فما الرأى؟ قال تســيرون إلى الكورة التى أشــار بنزولها «معاذ بن جوين» يعنى «حلوان» أو تســيرون بنا إلى عين التمر، فنقيم بها، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كل جانب وأوْب.

رد حيان

فقال له حيان: إنك والله لو سرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ما اطمأننتم به حتى يحلق بكم خيول أهل المصر فأنى تشــفون أنفكسـم؟ فوالله ما عدتكم

بالكثيـــرة، التى ينبغى أن تطمعوا معهـــا بالنصر فى الدنيا على الظالمين فاخرجوا بجانب مـــن مصركـــم هذا فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ولا تربصوا ولا تنتظروا فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة قالوا: أما إذا كان لابد لنا فإنا لن نخالفك فاخرج حيث أحببت.

مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة سنة ٦٤ هـ وسار إليه مسلم بن عقبة المـــرىّ فـــى جيش من أهل الشـــام بعد أن غزا المدينة وكان منه فـــى وقعة الحرة ما كان، فقال لهم نافع بن الأزرق: اخرجوا بنا نأت البيت، ونلق هذا الرجل، فإن يكن على رأينا جاهدنـــا معه العـــدو، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما اســـتطعنا، ونظرنا بعد ذلك فى أمورنا، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير فسر بمقدمهم ونبأهم أنه على رأيهـــم وأعطاهم الرضـــا من غير توقف ولا تفتيش فقاتلوا معه حتـــى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكة.

ثم إن القوم لقى بعضهم بعضا فقالوا: إن هذا الذى صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه، ينـــادى بالثـــارات عثمان وعلى وكفر أباه وطلحة بايعناه وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يجدى علينا.

فدخلوا على ابن الزبير وهو متبذل، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جئناك لتخبرنا رأيـــك فإن كنت على الصواب بايعنـــاك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ما تقول فى الشيخين؟ قال: خيرا قالوا: فما تقول فى عثمان الذى أحمى الحمى، وآوى الطريد، وأظهـــر لأهل مصر شـــيئا وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبى معيط رقـــاب الناس وآثرهم بفىء المسلمين، وفى الذى بعده، الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نـــادم، وفـــى أبيك وصاحبه، وقد بايعا عليا وهو إمـــام عادل مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثـــا بعرض من أعراض الدنيا وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونســـأل الله لك التوفيق وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى الســـنين الســـت التى أحلت دمه، ونقضت لأحكامه، وأفســـدت إمامتـــه، خذلك الله وانتصر منا بأيدينا، فقال

ابن الزبير: إن الله أمر (وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين، وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [سورة طه: الآيات ٤٣ – ٤٤]. وقال رسول الله ﷺ: لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى فنهى عن سبّ أبى جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول، والمقيم على الشرك والجاد فى المحاربة، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة، والمحارب بعدها، وكفى بالشرك ذنبا! وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا: أتبرأ من الظالمين؟ فإن كانا منهم دخلا فى غمار المسلمين وإن يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله عز وجل – قال للمؤمن فى أبويه: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [سورة لقمان: آية ١٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [سورة البقرة: آية ٨٣].

وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده، وليس يقنعكم إلا التوقف والتصريح ولعمرى إن ذلك لأحرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحق، وأولى أن يعرف كل صاحبه من عدوه، فروحوا إلى من عشيتكم من هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى.

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه، فلما رأى ذلك تحيره، قال: هذا خروج منابذ لكم فجلس على رقيع من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ثم وصلهن بالسنين التى أنكروا سيرته فيها، تجعلها كالماضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبى العاص بإذن رسول الله ﷺ وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور وكان له أن يفعلها أولا مصيبا ثم أعتبهم بعد ذلك محسنا وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضمن لهم العتبى، ولم يأمر به، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه، وعثمان الرجل الذى لزمته يمين، ولو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله ﷺ: من حلف بالله فليصدق، وأنا وليّه وعدو عدوه، وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله، ورسول الله ﷺ يقول عن الله عز وجل يوم أحد، لما قطعت إصبع طلحة: سبقته إلى الجنة

وقــال: أوجب طلحـــة وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قــال: ذاك يوم مكة أو جله لطلحة والزبير حوارى رسول الله ﷺ وصفوته، وقد ذكر أنه فى الجنة، فقال جلّ وعز: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشــجرة» وما أخبرنا بعد أنه ســخط عليهم، فإن يكن ما ســعوا فيه حقا، فأهل ذلك هم، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها، وفيما وفقهم من الســابقة مع نبيهم ﷺ ومهما ذكرتموهما فقد بدأتم بأمكم عائشـــة رضى الله عنها فإن أبى آبٍ أن تكون له ما نبذ اسم الإيمان عنه، وقد قال الله جل ذكره وقوله الحق: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه.

كلامه عمر بن عبد العزيز فى مرضه الذى مات فيه

ودخـــل عليه مســـلمة بن عبـــد الملك فى المرضـــة التى مات فيها، فقـــال له: يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة ولابد من شــىء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله.

فقال «عمر» أجلسونى فأجلسوه، فقال:

الحمد لله، أبالله تخوفنى يا مســلمة! أما ما ذكرت من أنى فطمت أفواه ولدى من هذا المــال، وتركتهــم عالة، فإنى لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك، أو إلى نظرائك من أهل بيتى، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزل الكتــاب وهــو يتولى الصالحين وإنما بنو «عمر» أحد رجلين رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره يسرا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه، ادعوا لى بنى فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم أيا بنى: إنى قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تكرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شــاء الله، يا بنى ميلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فــكان أن تفتقــروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا فى النار، قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم قالوا: فما احتاج من أولاد عمر ولا افتقر.

مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سـنة مائة بالجزيرة شـوذب الخارجى واسمه «بسطام» من بنى يشكر فكتب إليه عمر ابن عبد العزيز: بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله، ولست أولى بذلك منى فهلم إلى أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك، فكتب بسـطام إلى عمر: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، وأرسـل إلى عمر مولى لبنى شـيبان حبشيا اسمه «عاصم» ورجلا من بنى يشكر فقدما على عمر بخاصرة فأخبر بمكانهما فقال: فتشوهما لا يكن معهما حديد، وأدخلوهما، فلما دخلا قالا: السـلام عليك ثم جلسـا فقال لهما عمر: أخبرانى ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا؟ وما نقمتم علينا؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر، أعن رضا من الناس ومشـورة، أم ابتززتم أمرهم؟ فقال عمر: ما سـألتهم الولايـة عليهـم ولا غلبتهم عليها، وعهد إلى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره على أحد، ولـم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف، من كان الناس فاتركونى ذلك الرجـل، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لـى عليكم فقالا: بيننا وبينك أمر، إن أنت أعقبتناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك، فقال عمر: وما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها مظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت إنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق، فتكلـم عمر فحمد الله وأثنى عليـه، ثم قال: إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا فى خروجكم هذا طلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا، وقال إبراهيم، فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم، وقال الله عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [سورة الأنعام: آية ٩٠]. وقد سميت أعمالهم، ظلما، وكفى بذلك ذما ونقصا، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها، فـإن قلتـم إنها فريضة فأخبرنى متى لعنت فرعون؟ قال: أذكر متى لعنته قال: أفيسـعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشـرهم ولا يسـعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون؟ قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا، لأن رسـوله الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقربه وبشـرائعه قبل منه، فإن أحـدث حدثا أقيم عليه الحد، فقال الخارجى:

إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر: فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم، على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء، قال عاصم: فأبرأ ممن خالف عملك، ورد أحكامهم قال عمر: أخبرانى عن أبى بكر وعمر: أليس من أسلافكما وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا اللهم نعم. قال فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب، قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال، وسبى الذرارى؟ قالا نعم. قال: فهل برىء عمر من أبى بكر، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية؟ قالا: لا قال: فهل برئ عمر من أبى بكر، أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟ قالا: لا قال: فأخبرانى عن أهل النهروان أليسوا من صالحى أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما. ولم يخيفوا آمنا، ولم يأخذوا مالا؟ قال: نعم: قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك، استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت: صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته؟ ثم صحبوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الإقط وهى تفور قالا: قد كان ذلك. قال: فهل أبرىء أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا: لا قال: أرأيتم الدين واحدا أم اثنين؟ قالا: بل واحدا قال: فهل يسعكم فيه شىء يعجز عنى؟ قال: لا قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء، فى الدماء والفروج والأموال، ولا يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم؟ ويحكم! إنكم جهال.

أردتم أمرا فأخطأتموه فأنت تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويختف عندكم من أمن عنده، قالا: ما نحن كذلك قال عمر: بل سوف تقرون بذلك الآن هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن قبل ذلك حقن دمه، وأحرز مال، ووجبت حرمته وكانت له أسوة المسلمين؟ قالا: نعم قال: أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فتستحلون

دمــه وماله، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسـائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمـون دمه؟ فقال اليشـكرى: أرأيت رجلا ولى قومـا وأموالهم فعدل فيها، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل؟ أو تراه قد سلم؟ قال عمر: لا قال: أفتسـلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيرى والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى. قال: أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا؟ فبكى عمر وقال: أنظرانى ثلاثا فخرجا من عنده ثم عادا إليه.

فقال عاصم: أشهد أنك على حق، فقال عمر لليشكرى ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما وصفت ولكن لا أفتات على المسـلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجته، فأما عاصم فأقام عند عمر، فأمر له عمر بالعطاء فتوفى بعد خمسة عشر يوما فكان عمر يقول: أهلكنى أمر يزيد وخصمت فيه، فاسـتغفر الله، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد وضعوا على عمر من سـقاه سـما، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا، حتى مرض ومات.

تأبينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك، وسـوى عليه قبره بالأرض وجعلوا على قبره خشـبتين من زيتون إحداهما عند رأسـه، والأخرى عند رجليه، اسـتوى عمر قائما وأحاط به الناس، فقال:

رحمك الله يا بنى، فقد كنت برا بأبيك، والله ما زلت مذ وهبك الله لى بك مسـرورا، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا بك، ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه، فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسـن عملك، وتجاوز عن سـيئاتك، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير، من شاهد أو غائب رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين.

تأديب معاوية لجلسائه

أذن معاوية للأحنف بن قيس – وقد وافى معاوية محمد بن الأشـعث – فقدمه عليه، فوجـد مـن ذلك محمد بن الأشـعث وأذن له فدخل فجلس بين معاويـة والأحنف، فقال معاوية: إنا والله ما أذنا له قبلك، إلا ليجلس إلينا دونك، وما رأيت أحدا يرفع نفسه فوق

قدرها، إلا من ذلة يجدها، وقد فعلت فعل من أحس من نفسه ذلا وضعة وإنا كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا منا ما نريده منكم، فإنه أبقى لكم وإلا قصرناكم كرها، فكان أشد عليكم وأعنف بكم.

كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتا معاوية لف وجهه بعمامة ثم خرج إلى الناس فقال: لئن ابتليت لقد ابتلى الصالحون قبلى، وإنى لأرجو أن أكون منهم، ولئن عوقبت لقد عوقب قبلى وما آمن أن أكون منهم. ولئن سقط عضوان منى لما بقى أكثر، ولو أتى على نفسى لما كان لى عليه خيار تبارك وتعالى، فرحم الله عبدا دعا بالعافية، فوالله كان عتب على خاصتكم لقد كنت حدبا على عامتكم.

تقريع عبد الملك بن مروان لأحد أعماله

وروى الجاحظ قال:

قال أبو الحسن: كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة، كثير التعاهد لولاته، فبلغه أن عاملا من عماله قبل هدية فأمر بإشخاصه إليه، فلما دخل إليه قال: أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة وخراجكم موفور ورعيتك على أفضل حال قال: أجب فيما سألتك عنه أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم، ولئن أنلت مهديك لا من مالك، أو استكفيته ما لم يكن يستكفاه، إنك لجائر خائن ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدى إليك من مالك وقبلت ما اتهمك به عند من استكفاك، وبسط لسان عائبك، وأطمع فيك أهل عملك إنك لجاهل، وما فيمن أتلى أمرا لم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل، مصطنع تحياه عن عمله.

كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وخرجت خارجة بخراسان، فقيل لقتيبة بن مسلم: لو وجهت إليهم وكيع بن أبى سود قال: وكان وكيع رجلا عظيم الكبر فى أنفه خنزوانة، وفى رأسه نُعرة – وإنما أنفه فى أسلوب ومن عظم كبر، اشتد عجبه، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيا ولم يؤامر نصيحا، ومن تفرد بالنظر لم يكمل له الصواب، ومن تبجح بالانفراد، وفخر بالاستبداد، كان من

الصواب بعيدا، ومن الخذلان قريبا والخطأ مع الجماعة، خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ، والفرقة لا تصيب، ومن تكبر على عدوه حقره وإذا حقره تهاون بأمره، ومن تهاون بخصمه، ووثق بفضل قوته قل احتراسه، ومن قل احتراسه كثر عثاره، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب، إلا كان منكوبا، فلا والله حتى يكون عدوه عنده وخصمه فيما تغلب عليه أسمع من فرس، وأبصر من عقاب، وأهدى من قطاة وأحذر من عقعق، وأشد إقداما من الأسد، وأوثب من الفهد، وأحقد من جمل وأروغ من ثعلب، وأغدر من ذئب وأسخى من لاقطة وأشح من صبى، وأجمع من ذرة وأحرس من كلب، وأصبر من خبب فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة، وتتحفظ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب.

قوله فى مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيد بين يديه، وهو ينظر إليه إعجابا به فقال: يا أبا بحر ما تقول فى الولد؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين هم عماد ظهورنا، وتمر قلوبنا وقرة أعيننا بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا، فكن لهم أرضا ذليلة وسماء ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم لا تمنعهم رغدك، فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك فقال: لله درك يا أبا بحر! هم كما وصفت.

شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه فى قوم حبسهم، فقال: أصلح الله الأمير، إن كانوا حبسوا فى باطل، فالحق يخرجهم وإن كانوا حبسوا فى حق فالعفو يسعهم فخلاهم.

نصيحته لقومه

وقال بخراسان: يا بنى تميم تحابوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.

كلمات حكيمة للأحنف

قال: فى ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلانى بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعنى الملوك - ما لم أدع إليه،

وما حللــت حبوتى إلى ما يقــوم الناس إليه، وقال: ألا أدلكم علــى المحمدة بلا مرزئة؟ الخلق السجيح والكف عن القبيح ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ الخلق الدنى، واللسان البذىء، وقال: ما خان شــريف ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن وقال: ما ادخرت الآباء للأبناء، ولا أبقيت الموتى للأحياء، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شــيئا عرف به، وســمع رجلا يقول: وما أبالى أمدحت أم ذممت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام، وقال: جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء، فإنى لأبغض الرجل يكون وصافا لفرجه وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه.

وكان يقــول: إذا عجب النــاس من حلمه: فإنى لأجد ما تجــدون ولكنى صبور وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لى من الرجال وقال: الكذوب لا حيلة له، والحســود لا راحة له، والبخيل لا مروءة له، والملول لا وفاء له، ولا يسود سيئ الأخلاق ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلا أن يكتم ذلك ويتجمل وقال: أربع من كن فيه كان كاملا، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحى قومه، : دين يرشــده، أو عقل يســدده أو حســب يصونه أو حياء يقناه وقال: المؤمن بين أربع مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه وكافر يجاهده، وشيطان يفتنه وأربــع ليس أقــل منهن: اليقين، والعــدل، ودرهم حلال وأخ فــى الله وقال: لأن أدعى مــن بعيد، أحب إلى من أن أقصى من قريــب – وكان يقول: إياك وصدر المجلس، وإن صدرك صاحبه، فإنه مجلس قلعة وقال: من لم يصبر على كلمة ســمع كلمات وقال: رب غيظ تجرعته فحاحة ما هو أشد منه وقال: من كثر كلامه كثر سقطه ومن طال صمته كثرت ســلامته وقال: ثلاث لا أناة فيهن عندى قيل: وما هن يا أبا بحر؟ قال: المبادرة بالعمل الصالح، وإخراج ميتك، وأن تنكح الكفء أيمك وكان يقول: لأفعى تحكك فى ناحية بيتى أحب إلى من أيم رددت عنها كفئا.

سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب عنه

ودخــل العجاج علــى عبد الملك بن مروان فقال: يا عجــاج: بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه إخراب الأخبية، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزا يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نظلم

فعلام الهجاء؟ فقال: لكلماتك أشعر من شعرك فأنى لك عز يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع، والفهم الناصع، قال: فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرق والطبع التالد، قال: يا عجاج لقد أصبحت حكيما قال: وما يمنعنى وأنا نجى أمير المؤمنين؟

عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشارى. قال: اضربوا عنق ابن الفاجرة، فقال عمران: لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتنى به؟ أبعد الموت منزلة أصانعك عليها؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال: خلوا عنه، فخرج إلى أصحابه، فقالوا: والله ما أطلقك إلا الله فارجع إلى حربه معنا فقال: هيهات! غل يدا مطلقها، وأسر رقبة معتقها.

■ ■ ■

أهم المصادر والمراجع

١ – أعــلام الأدب فــى عصر بنى أمية – تأليف/ محمد عبــد المنعم خفاجى، القاهرة، ١٩٥٤م.

٢ – جمهــرة خطب العرب، تأليف/ أحمــد زكى صفوت، الجزء الثانى، العصر الأموى (البابى الحلبى) ١٩٥٣ هـ/ ١٩٣٢م.

٣ – التطور والتجديد فى الشعر الأموى، تأليف/ شوقى ضيف، القاهرة ١٩٥٢م.

٤ – الشعر فى العصر الأموى، بقلم/ خليل مردم (مم ٤٤ – كانون الثانى) يناير ١٩٥٥م.

٥ – أمراء البيان، تأليف/ محمد كرد على، القاهرة ١٩٣٧م.

٦ – أعــلام الأدب فــى عصــر بنى أمية، تأليــف/ محمد عبد المنعــم خفاجى، القاهرة ١٩٥٤م.

٧ – أدب الخلفــاء الأمويــن، تأليف/ عبــد الرازق حميدة، القاهــرة، الأنجلو المصرية ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م.

٨ – شعراء البلاط الأموى، تأليف الدكتور/ عمر فروخ، بيروت ١٩٥٤م.

٩ – شــعر الخــوارج: نشــأته وتطوره، وتأليف/ أحمد عبد الســتار الجــوارى، القاهرة ١٩٤٨م.

١٠ – شعر الخوارج (حرّره/ إحسان رشيد عباس) بيروت، دار الثقافة ١٩٦٢م.

١١ – أدب الخوارج فى العصر الأموى، تأليف ســهير القلماوى، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م.

١٢ – تاريخ النقائض فى الشعر العربى، تأليف/ أحمد الشايب القاهرة ١٩٤٦م.

١٣ – من أعلام الشعر السياسى، تأليف/ عمران بن محمد بن عمران، الرياض ١٣٧٧هـ.

١٤ – نقائض جرير والأخطل، بقلم/ لويس شيخو (مجلة المشرق).

١٥ – أدب الشــيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى، تأليف/ عبد الحســيب طه حميدة، القاهرة، السعادة ١٩٥٦م.

١٦ – أثر التشــييع فى الأدب العربى، تأليف/ محمد ســيد كيلانى، القاهرة، مكتبة مصر ١٩٤٧م

١٧ – الأدب فى ظل التشييع، تأليف/ عبد الله نعمة، بيروت.
١٨ – أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجرى، تأليف/ عبد الحكيم بلبع القاهرة (مكتبة نهضة مصر) ١٩٥٩م.
١٩ – جمهرة رسائل العرب، تأليف/ أحمد زكى صفوت، القاهرة ١٩٣٧م.
٢٠ – القصص فى الأدب العربى، بقلم/ أحمد ضيف (مجلة المقتطف – فبراير – شباط ١٩٣٥م).
٢١ – الأغانى لأبى فرج الأصفهانى، طبعة الساس.
٢٢ – الكامل للمبرد.
٢٣ – طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى.
٢٤ – العقد الفريد، تأليف/ محمد سعيد العريان، الطبعة الثانية.
٢٥ – الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى.
٢٦ – البيان والتبيين للجاحظ، تعليق/ محمد عبد السلام هارون.
٢٧ – الموشح للمرزبانى.
٢٨ – تاج العروس للزبيدى.
٢٩ – كتاب الأمالى للزبيدى (حيدر آباد الدكن) (١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨م).
٣٠ – معجم الأنساب والأسر الحاكمة، للمستشرق زامباور.
٣١ – الأعلام لخير الدين الزركلى.
٣٢ – سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكيم.
٣٣ – كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة (حيدر آباد الدكن).
٣٤ – كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى (القاهرة – دار إحياء الكتب العربية (١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م).
٣٥ – رسائل البلغاء، الطبعة الثانية عنى بجمعها/ محمد كرد على مصر – دار الكتب العربية الكبرى لمصطفى البابلى الحلبى ١٣٣١ هـ/ ١٩٣١م.
٣٦ – جمهرة رسائل العرب – عبد الحميد الكاتب – لخليل مردم المجلد الأول ١٩٣٦م.

الفهرس